
الهلال
رجاء النقاش
أولاد حارتنا
بين الفن والدين

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
مجدى الدقاق

المستشار الفنى
محمد أبوطالب

مدير التحرير
أحمد شامخ



الإصدار الأول/ يونيو ١٩٥١

الإدارة

القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) - المكاتبات: ص. ب: ١١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس:
Telex 92703 hilal u n

فاكس:
FAX: 3625469

العدد ٦٨٦ - فبراير (شباط) ٢٠٠٨م

محرم ١٤٢٩ هـ - طوبة ١٧٢٤ق

ثمن النسخة: سوريا ١٧٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ فلسا - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣,٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات - السودان ٣,٥ جنيه

البريد الإلكترونى:
darhilal @ idsc. gov. eg

أولاد حارتنا

بين الفن والدين

رجاء النقاش

دار الهلال

الخطوط للفنان: محمد العيسوى
المتابعة : على حامد

مقدمة

هذه مجموعة من الفصول المتفرقة التى قمت بنشرها خلال السنوات الماضية فى عدد من الصحف والمجلات، والذى يربط بين هذه الفصول جميعا هى أنها تدور حول رواية «أولاد حارتنا» لأمير الرواية العربية «نجيب محفوظ». ويمكننا القول بدون مبالغة إن هذه الرواية المنشورة لأول مرة على صفحات الأهرام سنة ١٩٥٩، كانت أخطر رواية عربية فى القرن العشرين، والسبب فى ذلك ليس قيمتها الفنية فقط، بل هو ما قامت عليه الرواية من أفكار، وما قدمته من شخصيات، فقد شاء المتطرفون ممن يحاولون التسلط على العقل العربى ويعملون على تقييده بقيود شديدة حتى لا يتحرر وينطلق فى الآفاق، كما انطلقت عقول الآخرين فتقدموا فى حياتهم وعالجوا كثيرا من مشاكلهم، وبقينا نحن فى آخر المسيرة.. حاول هؤلاء أن يستخرجوا من رواية «أولاد حارتنا» ما يثبت أنها رواية كافرة وأن مؤلفها كافر، وذلك عن

طريق تفسير ضيق وخاطئ للدين، وقد بدأ الاعتراض على الرواية فى ستينيات القرن العشرين، وكان اعتراضا هادئا بعيدا عن الصخب، وبعيدا كذلك عن استخدام العنف، ولكن الحملة ازدادت شراسة بالتدريج، بعد أن اتسعت مساحة التطرف فى بلادنا، وازداد عدد الذين يستخدمون الدين فى غير موضعه، وقد وصل الأمر إلى محاولة اغتيال نجيب محفوظ سنة ١٩٩٤ على يد شاب متطرف جاهل، وعندما سئل الشاب عن سبب رغبته فى اغتيال نجيب محفوظ قال: إنه كافر، وعندما سئل بعد ذلك عن دليل التكفير عنده قال إنه كتاب اسمه «أولاد حارتنا»، فقيل للمتطرف: هل قرأت هذا الكتاب؟ فقال: لا، فمن أين جاء التكفير للكاتب والكتاب؟ قال المتطرف فى جرأة الجهلاء على الحق: لقد أخبرنى زملائى بذلك، أى أنه ذهب ليقتل نجيب محفوظ بسبب كلام سمعه على مقهى من زملائه الذين حرضوه على هذه الجريمة.

قصة «أولاد حارتنا» وما أحدثته من ردود الفعل المختلفة، ومعظمها عنيف، هى موضوع هذه الفصول، وقد خرجت من دراستى للرواية التى

أحدثت زلزالا فى حياتنا الأدبية والاجتماعية ، بأن المأساة كلها تكمن فى التفسير الخاطئ للدين، وإقحام الدين فى أمور لا علاقة له بها، وهذا بلاء يهدد مجتمعنا بالعزلة القاتلة عن العالم الذى نعيش فيه ، وهو بلاء ينذر بتقييد العقل حتى يتحول إلى مصدر للظلام، وليس مصدرا للنور. وعلينا أن نقف ضد هذا البلاء بكل ما نملك من قوة وعزيمة.

رجاء النقاش

القاهرة: يناير ٢٠٠٨

قبل الرحيل بشهر واحد

«حضرة المحترم» هى إحدى الروايات الجميلة لكاتبنا الكبير «نجيب محفوظ»، وقد صدرت هذه الرواية سنة ١٩٧٥، وهى تحتل رقم (٢٦) بين الروايات المحفوظية ، نسبة إلى نجيب محفوظ. وفى هذه الرواية يحدثنا نجيب محفوظ عن موظف بدأ حياته من تحت الصفر، ولكنه كافح حتى وصل إلى القمة فى وظيفته، وقد عاند هذا الموظف عنادا باسلا ضد ظروف بالغة القسوة، واستطاع أن يتغلب على هذه الظروف جميعا بإرادته وصبره وقوة احتماله واهتمامه الواسع بالثقافة، مما ساعده على تحقيق هدفه فى الوصول إلى القمة التى كان يحلم بها ، وفى هذه القمة بدأ المرض يحاصره والموت يتربص به، وقد رأى بعض النقاد فى هذه الرواية

● هذا الفصل تمت كتابته فى أول أغسطس سنة ٢٠٠٦ ، أى قبل رحيل نجيب محفوظ بشهر واحد، حيث أنه رحل عن دنيانا يوم ٣١ أغسطس سنة ٢٠٠٦.

تصويرا بديعا لحياة نجيب محفوظ فى «الوظيفة» أو لجانب فى وظيفته، فى هذه الحياة.

وقد أمضى نجيب محفوظ سبعة وثلاثين عاما فى الوظيفة بعد تخرجه فى قسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة فؤاد الأول «القاهرة الآن» إلى أن أصبح سنة ١٩٧١ مستشارا لوزير الثقافة بدرجة «نائب وزير»، إذ خرج إلى المعاش فى ١١ ديسمبر ١٩٧١، حيث بلغ فى ذلك التاريخ سن الستين، فهو من مواليد ١١ ديسمبر سنة ١٩١١ .

ولا شك أن رواية «حضرة المحترم» توحى بأنها فى ظاهرها قصة حياة موظف مقاتل أراد أن يتغلب على بؤسه وحظه السيئ، أو هو كما نقول بالعامية إنسان «مستقتل» من أجل تحقيق النجاح والكرامة والتغلب على قسوة الحياة التى واجهته منذ البداية، ذلك هو المعنى الأول، أو المعنى الظاهر على السطح فى الرواية ، ولكن المعنى الثانى الأكثر عمقا فى هذه الرواية هو أنها تحدثنا عن قصة الإنسان وكفاحه فى هذه الدنيا وما ينتظره فيها مِن مصير سعيد أو غير سعيد، وهذا المعنى الثانى فى رواية «حضرة المحترم» هو المعنى البعيد الأصيل فى هذه الرواية الجميلة الممتعة، ولا شك أن

هذا المعنى الثانى يأخذ بيدنا إلى الطريقة الصحيحة لفهم أدب نجيب محفوظ كله ، حيث من الضرورى أن نلتفت إلى ما وراء الظاهر فيه، لأن نجيب كأى فنان كبير مبدع لا يقدم إلينا فلسفته فى الحياة، ولا نظرته إلى الإنسان بصورة مباشرة، ولكنه يخفى ذلك كله وراء ستار ناعم شفاف، ومن الخطأ أن نكتفى بالمعانى الظاهرة فى أدب نجيب محفوظ، وهى فى حد ذاتها ممتعة وجذابة، ولكنها لا تكفى أبدا للوصول إلى حقيقة الفلسفة المحفوظية، وهى فلسفة رائعة عميقة تستحق منا - ولو تعبنا - أن نبحث عنها حتى نصل إلى الحقيقة فيها أو ما يقترب من هذه الحقيقة.

على أننى لا أريد هنا أن أتوسع فى تفسير رواية «حضرة المحترم»، وما فيها من التعبير العميق العذب عن قصة الإنسان فى كفاحه على الأرض وما يلقاه فى نهاية الرحلة من مصير، ولكنى أريد أن أستمد من عنوان هذه الرواية ما أستطيع أن أصف به نجيب محفوظ نفسه؛ فنجيب يستحق هذه الصفة أو هذا اللقب وهو «حضرة المحترم» الذى أثار الإعجاب والإجلال والدهشة فى بلادنا وفى العالم كله، فإنتاج نجيب محفوظ محترم جدا عندنا وعند غيرنا، وليس هناك

ورقة واحدة كتبها نجيب من بين آلاف الأوراق، يمكننا وصفها بأنها قد ينقصها هذا الاحترام العظيم.

أما الذين أسعدتهم الظروف - مثلى- بمعرفة نجيب محفوظ معرفة شخصية، واقتربوا منه وكانوا من محبيه ومريديه، فهم يستطيعون أن يقسموا على جميع الكتب المقدسة، وأن يبصموا بالعشرة على أوراق رسمية وغير رسمية، بأن نجيب محفوظ كإنسان هو نموذج مثالى لـ«حضرة المحترم»، فى صفاء نفسه، وترفعه عن الصغائر، ونفوره التام من صراعات المصالح والأموال والمناصب، وكل ما يثير الشهوات والمنافسات ومعارك القتال التى تدور فى العادة بين الناس من أجل مكسب هنا أو مكسب هناك.

والخلاصة أن نجيب محفوظ بقدر ما هو أديب عظيم، فإنه إنسان عظيم أيضا.

نجيب محفوظ فى الأدب هو «حضرة المحترم»، ونجيب محفوظ فى الحياة هو أيضا «حضرة المحترم»، ولم أعرف فى حياتى نموذجا اجتمعت فيه عبقرية الفنان مع عبقرية الإنسان بالقدر الذى وجدته عند نجيب محفوظ.

ومع حضرة المحترم نجيب محفوظ، نتوقف هنا عند بعض الإشارات المتفرقة، لأن مساحة العبقرية الفنية والإنسانية عند نجيب أوسع من أن يستوعبها حديث واحد.

يعترف نجيب محفوظ في حديث أجريته معه منذ سنوات أنه تعب في «الوظيفة» وتعب منها، ولكنه - كعادته - عندما تواجهه المصاعب فإنه كان يحاول تطويع الوظيفة ليستفيد منها، وفي هذا المعنى ، يقول «حضرة المحترم» نجيب محفوظ:

«أعطتني حياتي الوظيفية مادة إنسانية عظيمة، وأمدتني بنماذج بشرية لها أكثر من أثر في كتاباتي، ولكن الوظيفة نفسها كنظام حياة وطريقة لكسب الرزق لها أثر ضار على الأدب، أو يبدو الأمر كذلك لي، فقد ابتلعت الوظيفة نصف يومي لمدة سبع وثلاثين سنة، وهذا ظلم كبير. ولكن الوظيفة في الوقت نفسه، علمتني النظام والحرص على أن أستغل بقية يومي في القراءة والكتابة، بل جعلتني هذه الوظيفة أستغل كل دقيقة في حياتي بطريقة منظمة، مع عدم تجاهل أوقات الراحة والترفية، وهذا في تصوري أثر إيجابي للوظيفة في ظل المجتمع الذي نعيش فيه، فمن المستحيل أن يتفرغ الأديب

في بلادنا لعمله الأدبى وحده، ولو كانت أوضاعنا مثلما هو الحال في أوروبا، وصدر لى كتاب متميز، لتغيرات حياتي، وكنت استقلت من الوظيفة وتفرغت للعمل الأدبي ، لأن الكتاب المتميز هناك يحقق إيرادا يكفى لاتخاذ مثل هذه الخطوة».

وأذكر أننى ذات يوم كنت أشكو لنجيب محفوظ ضغط عملى الصحفي وابتلاعه للوقت والعمر، فنصحنى نجيب بألا أستسلم لظروف الحياة مهما تكن صعبة، ثم قال لي: «اسمع أنا صنعت نفسى وأدبى كله من «نشارة» الحياة»!

وقد هزتنى كلمة «نشارة الحياة» هذه، وعلمتنى ألا أشكو، وأن أحاول الانتفاع بكل دقيقة متاحة ، أستطيع فيها أن أعمل وأنتج، فالشكوى لا جدوى منها ولا فائدة.

ولا شك أن مما يزيد من موقف نجيب محفوظ وضوحا فى إدارته لحياته وأدبه، ما سمعته منه عن «موقفه من السلطة» حيث قال:

«أنا مش بتاع سلطة.. هذه حقيقة ليس فيها أى نوع من المبالغة، فلم تكن السلطة فى يوم من الأيام هدفى ومأربي، وذلك لسبب بسيط، هو أننى ما كنت أستطيع الجمع بين

السلطة والأدب؛ فالأديب الذى يقدس مهنته ويعشق قلمه، يفضل أن يبتعد عن السلطة بهمومها ومتاعبها ومشاغلها والتزاماتها، وفى خلال المدة التى عملت فيها رئيسا لمؤسسة السينما، وتبلغ حوالى العام ونصف العام، لم أقرأ ولم أكتب كلمة واحدة، وكان وقتى محصورا فى الوظيفة وما يتصل بها من متاعب وقيود».

«ليست السلطة هدفى الذى يتفق مع مزاجي وطبعي، بل إننى أعتبرها معطلة لى عن مهنتى الأساسية وهى الأدب، والسلطة الحقيقية التى طالما حلمت بها هى سلطة الأدب والفن، وليس السلطة الإدارية، فالأدب فى حد ذاته يمكن أن يكون سلطة مؤثرة إذا أحسن الأديب استخدامه، والأديب يمكن أن يكون صاحب سطوة ونفوذ وتأثير على الرأى العام بكتاباته، خاصة إذا تحولت هذه الكتابات إلى أعمال سينمائية أو تليفزيونية أو غير ذلك من الأشكال الشعبية الجماهيرية، وسلطة الأدب فى النهاية أسمى وأرفع وأبقى من أى سلطة إدارية، وأحب هنا أن أؤكد نقطة مهمة، وهى أن هذا الرأى خاص بى وحدي، ولا أفرضه على أحد غيري، ولا أستطيع أن أعيب على أى مفكر أو أديب عمله بالسياسة أو سعيه إلى أن يكون سلطة، فربما عن طريق السلطة يستطيع

هذا الأديب أن يخدم الحياة الثقافية، أفضل من تأليف كتاب أو رواية، وهناك نماذج كبيرة لأدباء ومفكرين قدموا خدمات جليلة للحياة الثقافية، بل للمجتمع كله، عندما وصلوا إلى مناصب قيادية، فالدكتور طه حسين - مثلا - ما كان يمكن أن يصل بأفكاره الخاصة بنشر التعليم ومجانيته إلى حيز التنفيذ، أو يطبق شعاره الشهير «التعليم كالماء والهواء حق للجميع» ما لم يصل إلى السلطة، وما لم يشغل منصب وزير المعارف من سنة ١٩٥٠ إلى سنة ١٩٥٢، وربما كان توفيق الحكيم من الأدباء القلائل الذين يتوافق مزاجهم مع مزاجى فى تفضيلهم سلطة الأدب على السلطة الإدارية، ولذلك قدم توفيق الحكيم استقالته من النيابة العامة، فى وقت كان فيه منصب «وكيل نيابة» من أرفع المناصب وأسماها، وكان من الممكن أن يتعرض للاتهام بالجنون من يتخلى عن مثل هذا المنصب من أجل الأدب والتفرغ له».

على أن أدق وأهم ما سمعته من نجيب محفوظ عن إخلاصه لأدبه، هو قوله عن موقفه الأدبى بعد زواجه:

«عندما تزوجت فى عام ١٩٥٤، بعد أن ظللت سنوات عازفا عن الزواج بسبب تفرغى للأدب، توقع العديد من

أصدقائى أن تتراجع جرأتى فى تناول قضايا المجتمع، وتقل شجاعتى فى نقد الأخطاء والسلبيات، خوفا على أسرتي، كما توقعوا أن مسؤوليتى العائلية الجديدة التى تحملتها لا شك سوف تدفعنى إلى أن أكون مسالما وبعيدا عن الصدام مع أى سلطة، ولكن خابت توقعاتهم، حيث ازدادت كتابتى عنفا وجرأة، ولهذا الأمر أسبابه، وأولها أننى عندما أمسك بالقلم أنسى كل شئ ... خوفى ومسؤولياتى وأسرتى، وأنسى حتى نفسي، وفى هذه الحالة لا أفكر إلا فيما أؤمن به وأريد التعبير عنه بصدق وأمانة، ثم هناك نقطة أخرى هى أن انتقاداتى دائما موضوعية، ولا تحيط بى أى شبهات شخصية، كما أننى ليس لدى أى شعور بالإثم تجاه أى شئ أو أى شخص.

فى الجانب الإنسانى لحضرة المحترم نجيب محفوظ، هناك شهادات كثيرة نبدؤها بشهادة صديق عمره الذى عرفه وصاحبه منذ أيام الصبا، وهو الطبيب الدكتور أدهم رجب، أستاذ ورئيس قسم الطفيليات بكلية طب «قصر العينى» بجامعة القاهرة سابقا، وفى هذه الشهادة التى كتبها الدكتور أدهم سنة ١٩٧٠، يحدثنا عن صديق عمره نجيب محفوظ، وعن صفة أساسية فيه هى «الوفاء». فيقول:

«كان نجيب محفوظ ولا يزال وفيا، ذلك النوع الأسطورى من الوفاء، والذى لا نسمع عنه إلا فى القصص والروايات الخيالية، أصدقاؤه الأعزاء هم الذين عرفهم وعرفوه فى مطلع صباه فى العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن العشرين، وبعد ذلك فإن كل من صادقهم هم مجرد معارف وزملاء.

كان أعز أصدقائه مختار نويرة وفؤاد نويرة، رحمهما الله، وهما شقيقا الفنان الموسيقار عبد الحليم نويرة، وهناك أيضا عبد ألجى الألفى الذى كان وكيلا بديوان المحاسبة، وكاتب هذه السطور «أى الدكتور أدهم رجب»، ولم يكن وفاء نجيب محفوظ للأشخاص وحسب، بل كان وفاء للمعانى والعادات، فقد كان لديه برنامج ليوم الخميس لا يعدل عنه مهما تكن الأسباب، فهو يغادر مكتبه عند الظهر ليتناول غداءه مع والدته ومع أشقائه وشقيقاته ومنهم شقيقه الأكبر وناظر مدرستى الأستاذ إبراهيم عبد العزيز، وبرغم العمر المديد الذى بلغه شقيق نجيب محفوظ الأكبر فإنه لم يكن يجرؤ على إشعال سيجارة إمام والدته، وبعد انتهاء غداء نجيب محفوظ وأشقائه مع والدتهم ظهر الخميس، يذهب الساعة السادسة إلى قهوة «عرابى» ليقابل أصدقاءه الشخصيين القدامى جدا،

وفى الثامنة يذهب إلى «الحرافيش» وهم «شلة» حديثة العهد نسبيا».

هذا بعض ما كتبه الدكتور أدهم رجب سنة ١٩٧٠، أى منذ أكثر من ثلاثين سنة، وقد تغيرت الدنيا وتغير الناس، ولكن هناك شيئين لم يتغيرا هما وفاء «نجيب محفوظ» لمن بقى من أصحابه، ووفائه لأصحابه الذين دخلوا حياته فى مراحل جديدة.

فـ«نجيب محفوظ» هو رجل وفاء من طراز رفيع، أما الشئ الثاني، إلى جانب الوفاء، والذى لم يتغير فى نجيب محفوظ فهو «الدقة فى مواعيده كلها»، مما جعل صديقه الكاتب الفنان الراحل محمد عفيفى يسميه «رجل الساعة». ويقول عفيفى عن ذلك:

«يستطيع جيران نجيب محفوظ أن يضبطوا ساعتهم على مواعيد نشاطاته المختلفة، يضبطونها مرة فى الصباح على لحظة خروجه من البيت لعمله الوظيفي، ومرة فى المساء على اللحظة التي يضاء فيها النور فى مكتبه، فهو ليس من أولئك الناس الذين يجلسون للكتابة فى أى لحظة، وإنما للكتابة- مثل صلاة الجمعة- لحظة معينة محددة لا تجوز إلا فيها،

كذلك يستطيع الجيران- وهذا غريب بعض الشئ - أن يضبطوا ساعاتهم على اللحظة التى ينطفئ فيها النور فى حجرة مكتبة معلنا عن انتهائه من الكتابة.

فنجيب يحب أن يكف عن الكتابة فى اللحظة المحددة لذلك من قبل، مهما يكن عنده من الأفكار الجاهزة التى تلح عليه بأن يدونها، فى لحظة الكف يجب أن يكف، مهما يكن من أمر تلك اللحظة التى ربما حلت وقد انتهى من السياق إلى حرف جر، فيلقى بالقلم دون أن يكتب المجرور.. هكذا قال لى والله على ما أقول شهيد».

ومعنى كلام محمد عفيفى واضح، فنجيب محفوظ إذا كان يكتب جملة مثل «دخلت إلى..» ثم يجئ موعد التوقف عن الكتابة فهو يتوقف عند كلمة «إلى» ثم يكمل الجملة فى الغد عندما يعود إلى الكتابة من جديد.

وفى حياة نجيب محفوظ هوايتان عجيبتان هما: الغناء وكرة القدم، ومصدر العجب فى هاتين الهوايتين هو أن شخصية نجيب محفوظ الأدبية لا توحى بأنه كان يحلم فى شبابه بأن يكون مطربا، أو كان يحلم أحياناً بأن يكون لاعب كرة قدم معروفا فى الملاعب وبين الجماهير، والحقيقة أن مثل

هذه الأحلام هي دليل على الصلة القوية بين شخصية نجيب محفوظ وبين واقع الحياة، فهذه الشخصية لم تخرج من المكاتب المغلقة أو البيوت المعزولة عن الناس وعن حركة المجتمع، فقد كان نجيب مثل غيره من شباب جيله، يمارس تجاربهم ويحلم بأحلامهم ، وذلك قبل أن يتخذ قراره بالتفرغ للأدب والتركيز عليه ، فشخصية نجيب الأولى أنضجتها تجارب الحياة والصلة الوثيقة بالناس والواقع.

علاقة نجيب محفوظ بالموسيقى والغناء، شرحها في حديث معي يقول فيه:

«بلغ من حبي للموسيقى والغناء، أنني التحقت بمعهد الموسيقى ودرست فيه لمدة عام كامل، ويبدو لي الآن أنني لو كنت وجدت توجيها سليما من أحد لتغير مسار حياتي واخترت طريق الموسيقى وليس الأدب، وأنا لم أفكر يوما في أن أكون فنانا تشكيليا رغم حبي للفن التشكيلي، ولكن كان ممكنا أن أحترف الموسيقى من شدة فتنتي بها، وعلى أي حال فقد كان للقدر تصاريف أخرى».

«كان التحاقى بمعهد الموسيقى العربية عام ١٩٣٣، وكنت – وقتذاك – طالبا بالسنة الثالثة بقسم الفلسفة فى كلية الآداب جامعة فؤاد الأول «القاهرة الآن» وكانت النظم الجامعية المعمول بها فى تلك الفترة تسمح لمن هم فى السنة الثالثة بأداء امتحان الليسانس أو السنة الرابعة مباشرة، وبذلك لا أكون ملزما بأداء امتحانات السنة الثالثة، فانتهزت الفرصة وقررت دراسة الموسيقى، والتحقت بالمعهد لمدة عام وحصلت فى نهايته على أعلى الدرجات، ولكننى لم أواصل الدراسة فى العام التالي، فقد كان على الاستعداد لامتحان الليسانس فى كلية الآداب، وإلى وقتنا هذا «عام ١٩٩٠» مازلت أحفظ أدوارا من تلك التى درستها فى معهد الموسيقى العربية، وكنت أعزف على آلة القانون، وكان أستاذى فى هذه الآلة حفيدا للعقاد الكبير، عازف آلة القانون فى فرقة أم كلثوم الأولى، وهو أيضا ابن العقاد بك مدير المعهد، وللعقاد بك مدير المعهد هذا حادثه معى لا أنساها، حيث كان لديه عيب فى حنجرته يجعل صوته أشبه «بالشخير» أحيانا، ولذلك كان البعض يسميه باسم «الشيخ الشخير»، وفى أول مرة أذهب فيها إلى المعهد طلبوا منى مقابلة المدير، فدخلت مكتبه، وطلبت الالتحاق بالمعهد، فطلب منى أن أجلس أمامه، ثم أبدى

ملاحظة عن تقديمي في السن قليلا بالنسبة لمبتدئ في الموسيقى، وكنت في الثانية والعشرين، وقلت له: إني طالب في الجامعة، فوافق على انتسابي للمعهد، وسألني عما إذا كنت قد اخترت آلة موسيقية معينة لكي أدرسها، فقلت له: إذا كانت دراسة الآلة الموسيقية إجبارية، فإني اختار آلة القانون، ففوجئت به يصدر هذا الصوت الذي هو أشبه «بالشخير» فاعتقدت أنه يعبر عن رفضه لي أو احتجاجه على اختياري لآلة القانون، فتألمت واحمر وجهي خجلا، ولكنني التزمت الصمت، إلا أنه قدم لي استمارة بيانات لأملأها، وأثناء تدويني للبيانات المطلوبة تكرر منه هذا الصوت الغريب، وهو صوت «الشخير» أكثر من مرة، ففهمت أن ذلك صادر عن عيب في الحنجرة وليس فيه أي قصد شيء، ولم يكن أحد قد نبهني إلى شيء من ذلك قبل أن ألتقي به، وقد حكى لي المرحوم الموسيقار عبد الحليم نويرة حكاية طريفة عن هذا الرجل، ففي افتتاح معهد الموسيقى العربية صمم العقاد بك، على أن يشارك في الأوركسترا التي ستقوم بعزف السلام الملكي في الحفل الذي سوف يحضره الملك فؤاد، وحاول كثيرون إثنائه عن عزمه وشرحوا له إمكانية أن تفاجئه عادته الغريبة وهي «الشخير» أمام الملك، لأن الصالة سوف تكون

هادئة، وإذا خرج هذا الصوت فلا بد أن يسمعه الملك، ولا بد أن يعتبر الملك ذلك، إن حدث، إهانة شخصية له، فيأمر بإغلاق المعهد قبل افتتاحه، ولكن الرجل صمم على موقفه، ووعد بألا يتنفس، وبأنه سوف يسيطر على نفسه ويتحكم في صوته إلى أن تنتهي الحفلة، وبالفعل صدق فيما وعد طوال الحفلة التي ما إن انتهت حتى اختبأ خلف الستار وفعلها، وكأنه كان مكتوما».

هذه حكاية نجيب محفوظ مع الموسيقى والغناء، حيث كان في بداية حياته يحلم بأن يكون موسيقارا ومطربا، وقطع في الطريق إلى تحقيق هذا الحلم خطوات عديدة.

أما حلم نجيب محفوظ بأن يكون لاعب كرة قدم، فيحدثنا عنه صديق عمره ورفيق صباه الدكتور أدهم رجب، حيث يقول:

«كان نجيب محفوظ لاعب كرة من طراز نادر، وفي أيام صبانا في حي العباسية، كان محاورا ومداورا ومناورا كرويا لو استمر لنافس نجوم ذلك العصر من أمثال حسين حجازي والتتش، ومن بعدهما عبد الكريم صقر ثم الضظوي، وأقول الحق، وأنا أشهد للتاريخ، أنني لم أر في حياتي حتى الآن

«١٩٧٠» وأنا مدمن للكرة؛ فأنا شاهد عدل.. أقول: إنني لم أر لاعبا في سرعة نجيب محفوظ في الجري .. كان أشبه بالصاروخ المنطلق، وكان هذا يلائم الكرة في عصر صبانا، ففي شبابنا الباكر كان عقل اللاعب في قدميه، وكان اللاعب القدير هو اللاعب الفرد الذي ينطلق بالكرة كالسهم نحو الهدف لا يلوى على شيء؛ كان عقل نجيب محفوظ أيامها في قدميه».

هذا ما كتبه الدكتور أدهم رجب عن نجيب محفوظ لاعب الكرة، وقد علق نجيب محفوظ على هذا الكلام تعليقا غاية في الطرفة وخفة الظل، فقال:

«لم تكن النظريات والخطط في فن الكرة قد ظهرت بعد، لم نكن نعرف ما هي خطة ٣-٢-٣، ولا ما هي ٤-٢-٤، كان الجري السريع هو ما يميز اللاعب الممتاز.

وهذه الشهادة من صديق عمري تعطيكم فكرة عن المستقبل الكروي الذي أضعته في سبيل الأدب».

يحب نجيب محفوظ أن يشير دائما إلى أن أول ناقد التفت إليه وإلى أدبه هو «سيد قطب»، فقد قضى نجيب محفوظ عدة سنوات وهو يكتب من دون أن يلتفت إليه أحد من النقاد، وعندما أصدر نجيب محفوظ روايته الثالثة «كفاح طيبة» بعد

روايتين سابقتين عليها، هما : «عبث الأقدار» و «رادوبيس»، كتب سيد قطب عن «كفاح طيبة» مقالا مليئا بالعاطفة والحماسة الأدبية، ونشر هذا المقال فى مجلة «الرسالة» الصادرة بتاريخ ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٤٤، «العدد ٥٨٦»، وقد كان نجيب محفوظ قد استوحى رواية «كفاح طيبة» من التاريخ الفرعونى كما فعل في الروايتين السابقتين عليها، وبذلك يكون مقال سيد قطب عن نجيب محفوظ هو أول مقال نقدى مهم ظهر عنه ولفت الأنظار إليه، وفى هذا المقال كتب سيد قطب يقول:

«لو كان لى من الأمر شئ، لجعلت هذه القصة- أى كفاح طيبة»- فى يد كل فتى وكل فتاة ولطبعتها ووزعتها على كل بيت بالمجان، ولأقمت لصاحبها الذى لا أعرفه، أى نجيب محفوظ، حفلة من حفلات التكريم التى لا عداد لها فى مصر للمستحقين وغير المستحقين».

وهكذا كان سيد قطب أول ناقد مهم يعترف بنجيب محفوظ ويلفت الأنظار إليه، فى وقت لم يكن فيه اسم نجيب معروفا بين الناس ونجيب محفوظ الوفى دائما يعترف بذلك ويشير إليه فى كل أحاديثه على رغم اتساع الاختلافات الفكرية التى نشأت بعد ذلك بين تفكير نجيب محفوظ وتفكير

سيد قطب، وهى اختلافات عميقة وكبيرة، فنجيب محفوظ ليس من أنصار الدولة الدينية، أما سيد قطب فقد كان من كبار الدعاة للدولة الدينية، فى العالم الإسلامى كله.

فى تاريخ الأدب العربى فى النصف الأول من القرن العشرين، كان طه حسين يلعب دور الرائد المكتشف للمواهب الأدبية والفكرية المختلفة، وطه حسين هو واحد من كبار أصحاب الأفكار التى تسندها عاطفة قوية، فأفكاره ليست باردة ولا مترددة ولا هادئة. وعندما يقتنع طه حسين بشئ فهو يدافع عنه بحرارة وقوة وانفعال، وقد صاح طه حسين صيحتين كبيرتين عندما التقى لأول مرة بموهبتين عظيمتين من مواهب الأدب العربى المعاصر، أما الصيحة الأولى فكانت سنة ١٩٣٣، عندما قرأ مسرحية «أهل الكهف» وهى المسرحية الأولى التى نشرها توفيق الحكيم؛ وفى ذلك الوقت لم تكن الحياة الأدبية تعرف شيئا عن توفيق الحكيم، بل كان الحكيم مجهولا تماما بين الأدباء، وعندما صاح طه حسين صيحته العالية بالإعجاب والحماسة لتوفيق الحكيم ومسرحيته، أصبح توفيق الحكيم نجما من نجوم الأدب، وانتقل بين يوم وليلة - بفضل صيحة طه حسين - من المجهول إلى عالم الضوء الساطع، فقد كتب طه حسين يقول:

أما مسرحية «أهل الكهف» فحادث ذو خطر لا أقول في الأدب العربي المصري وحده، بل أقول في الأدب العربي كله، وأقول هذا من غير تحفظ ولا احتياط، وأقوله مغتبطاً به مبتهجا له، وأي محب للأدب العربي لا يغتبط ولا يبتهج حين يستطيع أن يقول وهو واثق بما يقول إن فنا جديدا قد نشأ فيه وأضيف إليه، وأن بابا جديدا قد انفتح أمام الأدباء وأصبحوا قادرين على أن يدخلوا فيه وينتهوا منه إلى آماد بعيدة رفيعة ما كنا نقدر أنهم يستطيعون التفكير فيها الآن».

تلك كانت صيحة طه حسين عندما اكتشف مسرحية «أهل الكهف»، وهذه الصيحة كانت هي شهادة الميلاد الأدبية لتوفيق الحكيم، وبعدها أصبح الحكيم من كبار النجوم في سماء الأدب العربي.

وتمر أيام وتنقضي أكثر من عشرين سنة ويصيح طه حسين صيحته الأدبية الثانية، والتي تمتلئ، مثل الصيحة الأولى، بالعاطفة والحماسة، وذلك عندما أصدر نجيب محفوظ الجزء الأول من الثلاثية وهو رواية «بين القصرين» سنة ١٩٥٦، وأمام هذه الرواية يقف طه حسين سعيدا ومفتونا بالرواية وكاتبها النابغ، والذي كان قد أصبح معروفا في

الأوساط الأدبية وبين جماهير القراء، ويكتب طه حسين عن الرواية بعد صدورها مباشرة فيقول:

«هذه قصة رائعة للأستاذ نجيب محفوظ، فقد أتيح له في هذه القصة البارعة نجاح ما أرى أنه أتيح مثله لأحد منذ أخذ المصريون ينشئون القصص في أول هذا القرن العشرين، فلأقدم تهنئتي إذاً كأصدق وأعمق ما تكون التهنئة إلى كاتبنا الأديب البارع نجيب محفوظ، ولأقدمها إليه بلا تحفظ ولا تحرج، فهو جدير بها حقا، لأنه أتاح للقصة أن تبلغ من الإتقان والروعة ومن العمق والدقة ومن التأثير الذي يشبه السحر ما لم يصل إليه كاتب مصري من قبله، وما أشك في أن قصة «بين القصرين» هذه تصمد للموازنة مع من شئت من كتاب القصص العالميين في أي لغة من اللغات التي يقرؤها الناس، وما رأيك في قصة تتجاوز صفحاتها المئات الأربع وتقرؤها منذ تبدأ إلى أن تنتهي فلا تحس بها ضعفا ولا تشعر فيها بفتور في أي موقف من مواقفها ولا تثير فيك إحساسا بأن الكاتب على إطالته قد أدركه شئ من الإعياء أو أصابه شئ من التراخي أو ناله ما ينال الأدباء الذين يطيلون من جهد وتعب».

هذا ما قاله طه حسين عن نجيب محفوظ سنة ١٩٥٦، ولم تكنْ صيحة طه حسين النقدية هي شهادة ميلاد نجيب محفوظ كما هي الحال مع توفيق الحكيم، لأن الناس كانوا قد التفتوا إلي نجيب واعترفوا به قبل أن يصيح طه حسين صيحته عن «بين القصرين». على أن صيحة طه حسين مع ذلك كانت تدعيما لمكانة نجيب محفوظ الشعبية، وكانت اعترافا له وزنه من أكبر أديب عربي في ذلك الوقت بعبقرية نجيب محفوظ وموهبته العالية، ولعلنا نلاحظ في كلام طه حسين تلك الإشارة التي تشبه النبوءة بأن نجيب محفوظ يستحق أن يكون كاتبا عالميا يقف إلى جانب أمثاله من كبار الروائيين الغربيين، وكلمات طه حسين هي أول نبوءة من نوعها تشير إلى ما يستحقه نجيب محفوظ من مكانة في الأدب العالمي وليس في الأدب العربي وحده، وهو ما اعترفت به جائزة نوبل لنجيب محفوظ سنة ١٩٨٨، أي بعد أكثر من ثلاثين سنة من نبوءة طه حسين بأنه سوف يكون أديبا عربيا وعالميا في الوقت نفسه.

نجيب محفوظ بعد ذلك كله هو، «ابن بلد» بكل معنى الكلمة، ففيه كل ما في أولاد البلد من شهامة ودفء العواطف

الإنسانية وخفة الظل، وما من صفة من هذه الصفات إلا ولها جذور أصيلة في شخصية نجيب محفوظ، وقد ولد نجيب محفوظ في حي «الحسين» وعاش في هذا الحي طفولته وصباه وشبابه الأول، وحي «الحسين» أشبه بجامعة كبرى لا يمكن أن يفلت من تأثيرها من عاش فيها وأحبها وانتمى إليها خلال فترة أساسية من العمر كما حدث مع نجيب محفوظ. كان لحي «الحسين» تأثير في أدب نجيب محفوظ، كما كان له تأثير عميق على شخصيته؟

الإجابة هي: نعم فأثر حي الحسين واضح كل الوضوح في أدب نجيب محفوظ، وسوف نلمس ذلك بسهولة في المرحلة التي يسميها النقاد باسم المرحلة الواقعية، فكثير من أسماء رواياته مستمد من بيئة «الحسين» مثل «خان الخليلي» و «زقاق المدق» و «بين القصرين» و «قصر الشوق» و«السكرية»، وكلها أسماء شوارع في حي «الحسين» انتقلت إلى عالم نجيب محفوظ الروائي ، ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى أن البيئات الشعبية هي البيئات التي اختارها عدد من كبار أدبائنا ليكتبوا عنها ويستمدوا الوحي منها، فرواية توفيق الحكيم الشهيرة «عودة الروح» اتخذت من جي «السيدة زينب» بيئة لها، ورواية يحيى حقي المعروفة «قنديل أم هاشم»

اتخذت من السيدة زينب أيضا بيئة لها، و«أم هاشم» هى السيدة زينب نفسها - أما نجيب محفوظ فقد رفع راية «الحسين»، فأصبحنا نشم رائحة هذا الحى، ونكاد نرى خريطته الجغرافية والإنسانية معا فى كثير من أعمال نجيب محفوظ الرائعة.

على أن أثر حى الحسين فى نجيب محفوظ هو أكبر وأعمق من هذا الأثر الظاهر فى أسماء الروايات المستمدة من أسماء الشوارع «الحسينية»، نسبة إلى حى «الحسين»، فقد استخدم نجيب محفوظ قاموس حى «الحسين» الشعبى فى كثير من الأحيان للتعبير عن أفكاره وتجاربه، ومن ذلك أن نجيب يستخدم «الحارة» كثيرا، و«الحارة» قد تكون «حارة» حقيقية، وقد تكون رمزا للعالم كله، حيث تبدو الدنيا وكأنها «الحارة» التى يعيش فيها الإنسان، وذلك كما نجد فى روايته «أولاد حارتنا» فالأولاد فى الرواية هم أبناء الإنسانية فى أجيالها المختلفة منذ سيدنا آدم إلى الآن، و«الحارة» هى العالم أو هى الدنيا التى يعيش فيها الإنسان ويفرح فيها أحيانا ويعانى أحيانا أخرى، ويواجه المشكلات والصعوبات فينتصر مرة وينكسر مرة أخرى، فالدنيا كلها ما هى إلا انتصارات تتلوها انكسارات أو العكس، ويمكن أن تكون

الدنيا انكسارات فقط، أما أن تكون انتصارات فقط فهذا أمر لم يحدث قط لأحد.

على أن «الحارة» ليست هى وحدها التى انتقلت من حى «الحسين» إلى أدب نجيب محفوظ، فهناك أيضا «الفتوات» الذين يمثلون القوة ويسعون إلى أن تكون لهم كلمة مسموعة وسلطة نافذة على الآخرين، وهؤلاء الفتوات يملأون أدب نجيب محفوظ بالحيوية النادرة، وذلك عندما يخوضون المعارك فينتصرون أحيانا وتنكسر رقابهم أحيانا أخرى، وهذا هو ما يجرى فى واقع الحياة، حيث لا دوام للقوة ولا دوام للضعف، فكل شئ يتغير، والذى فى الحضيض قد يرتفع، والذى فى القمة قد يسقط، ودوامة الحياة فى حركة مستمرة على صفحات أدب نجيب محفوظ العظيم.

يضاف إلى «الحارة» و«الفتوة» لفظ «النبوت»، وهو السلاح الذى يمثل إرادة القوة ورمزها الدائم.

على أن هذه الألفاظ المستمدة من أجواء «الحسين» الشعبية ليست هى وحدها التى تفيض بالسحر على أدب «ابن البلد» نجيب محفوظ، فهناك عناصر أخرى فى هذا الأدب تربطه فى قوة بأجواء حى «الحسين».. من هذه

العناصر ما يمكننا أن نسميه باسم «العنصر الصوفى»، ففى كثير من أعمال نجيب محفوظ، وأهمها هنا «ملحمة الحرافيش»، حيث نجد أجواء صوفية عالية فيها موسيقى وغناء وحالات من الوجد ترفع الإنسان عن الواقع وتنسيه الهموم والأحزان وتطير به فى أجواء الفضاء والسماء، وفى هذه الحالات تولد نشوة كبرى فى النفوس تبتعد بالإنسان عما فى الحياة من أثقال ومتاعب مادية قاسية.

ولا شك أن الحياة فى حى «الحسين» هى التى أوحت لنجيب محفوظ بهذه الأجواء الصوفية، وخلقت فى أدبه وشخصيته هذا الميل إلى التصوف.

ومن العناصر «الحسينية» أيضا فى أدب نجيب محفوظ عنصر «اللغة»: فلغة نجيب محفوظ هى لغة عربية فصيحة ، ولكنها على فصاحتها بسيطة ليس فيها أى تعقيد، وهى لغة لا تخفى أبدا أصلها الشعبى، ولا شك أن نجيب محفوظ قد استطاع أن ينقل إلى لغته العربية الفصيحة كمية كبيرة من «الدماء الشعبية»، وهذا ما جعل طه حسين فى مقاله عن رواية «بين القصرين»، يقول عن لغة نجيب محفوظ:

«إن جانبا من روعة بين القصرين يأتي من لغتها أيضا، فهي لم تكتب في اللغة العامية، ولم تكتب في اللغة الفصحى القديمة التي يشق فهمها على الناس، وإنما كتبت في لغة وسطى يفهمها كل قارئ مهما يكن حظه من الثقافة ويفهمها الأميون إن قرئت عليهم، وهي مع ذلك لغة فصيحة لا عوج فيها ولا فساد، وقد تجرى فيها الجملة العامية أحيانا حين لا يكون منها بد، فيكون موقعها حسنا وتبلغ منك موضع الرضا الكامل».

هذا ما قاله طه حسين، وهو حق وصدق، ولكن لغة نجيب محفوظ تحتاج إلى مزيد من الدراسة للكشف عن أسرار الجمال والحيوية والشاعرية فيها، وكم أتمنى أن تكون هناك دراسة دقيقة شديدة العناية بالتفاصيل حول «العناصر الشعبية» ففي لغة نجيب محفوظ الأدبية ، هذه العناصر وفيرة وكثيرة ورائعة، ابتداء من الألفاظ والأصوات إلى الصور والتشبيهات.

بقي من عناصر «ابن البلد» عند نجيب محفوظ عنصر مهم هو «خفة الظل»، وأعود هنا إلى شهادة الدكتور أدهم رجب الذي كتب عن هذا الجانب في شخصية نجيب محفوظ، يقول:

«نجيب محفوظ»، «ابن نكته»، كان فى رمضان يصحبنا إلى مقهى الفيشاوى القديم فى أواخر العشرينيات، وأوائل الثلاثينيات «من القرن العشرين»، حيث كان هناك أولاد نكتة محترفون ، يتصايحون بالنكت الجنسية السافرة ، ويا ويل من يستلمون «قافيته»، فكان نجيب محفوظ يتصدى لهم بمقدرة غريبة على توليد الأفكار وتخليقها ويواجههم بنكت تجعلهم أضحوكة الجميع ، وكان صوته جهوريا ، وكان خارقا فى سرعة ابتداع الفكرة ، حتى إنه كان يتصدى لعشرين شخصا دفعة واحدة بالنكتة تلو النكتة حتى يسكتهم جميعا، وكنا نحن رفاق صباه ننقلب إلى «مطيباتية» له، وإذا بخصومه ينضمون إلينا ويصبحون هم الآخرون «مطيباتية» له، وكان نجيب جبارا، إلى أنه كان يضحك خصومه على أنفسهم»، «والمطيباتية هم المصفقون والأنصار المؤيدون».

هذه الروح الضاحكة الساخرة التى يحدثنا عنها الدكتور أدهم رجب عن صديق عمره نجيب محفوظ، تسربت بل انتقلت فى سهولة ويسر إلى أدب نجيب محفوظ، فملأته بالمواقف الساخرة والشخصيات التى لا تخلو حياتها من الضحكات حتى فى عز الأزمات؛ فالسخرية العميقة عند «ابن البلد»

نجيب محفوظ هى عنصر أساسى من عناصر أدبه، وهى نافذة تهب منها فى هذا الأدب نسمات مريحة فى الأجواء المأسوية للروايات «المحفوظية» المختلفة.

ونجيب محفوظ عاشق لمصر، وهو أديب وفنان وطنى من الدرجة الأولى، والوطنية تعنى حب مصر حبا خالصا مخلصا لا شائبة فيه، ومن يتابع أدب نجيب من أول عمل له إلى آخر أعماله، سوف يلاحظ فى سهولة أن مصر وأهلها وزعمائها وأفراحها وأحزانها وطبقاتها الوسطى الفقيرة المكافحة «الغلبانة» والوطنيين وغير الوطنيين، هى الموضوع الأصلى لكل أدب نجيب محفوظ، وأقول «كل» وليس «بعض» ولا «معظم» فنجيب فى كل كتابته يستمد الإلهام من مصر، وحتى عندما يفكر فى القضايا الإنسانية العامة، وفى التأملات الفكرية والروحية المتصلة بالمصير الإنسانى الذى لا يرتبط بأرض أو بلد، فإننا نحس بعطر مصر يفيض على الصفحات فى تلك الأفكار والتأملات، فنجيب محفوظ يعطينا دائما إحساسا قويا بأنه يقف على أرض مصر وعلى شاطئ نيلها وبين ناسها وأهلها أو يقف على كورنيش الإسكندرية حتى لو طار بعد ذلك بخياله إلى أجواء الفضاء.

ولأن نجيب محفوظ وطنى مصرى، فهو فى الوقت نفسه عربى أصيل، لأن مصر الحقيقية لا تستطيع أن تخرج من عروبتها مهما حاول الذين يكرهون مصر أن ينزعوا عنها وجهها العربى الثابت الأصيل، والدليل على عروبة «ابن البلد» المصرى نجيب محفوظ أنه أصر منذ أن بدأ الكتابة فى أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين، على استخدام اللغة العربية الفصحى مع تطويرها وتبسيطها وتقريبها من اللغة الشعبية والذوق الشعبى، وقد رفض نجيب محفوظ جميع التحذيرات والتحريضات والإغراءات التى حاولت أن تدفعه إلى الكتابة بالعامية.

وأعود إلى وطنية نجيب محفوظ التى هى جزء لا يتجزأ من تكوينه، فأذكر هنا تجربة شخصية لى مع نجيب محفوظ، حيث اضطرتنى ظروف الحياة الصحفية والسياسية فى مصر فى وقت من الأوقات، إلى أن اقبل عرضا كريما من بعض الإخوة فى دولة قطر للعمل هناك، وكان ذلك سنة ١٩٧٩، وفى تلك الفترة كانت العلاقات المصرية مع معظم الدول العربية، ومنها قطر، مقطوعة، بعد زيارة السادات المعروفة للقدس سنة ١٩٧٧، وبعد أن سافرت إلى «الدوحة»، بعدة أسابيع ، تلقيت على عنوانى بالجريدة – التى كنت أعمل فيها وهى جريدة

«الراية» التى كنت مديرا لتحريرها، وكان لى شرف الاشتراك فى تأسيسها - رسالة لا أنساها من نجيب محفوظ، وهى رسالة أحتفظ بها فى حرص واعتزاز شديدين.

وتاريخ هذه الرسالة هو أول مايو ١٩٧٩، وهذا هو نصها:

«عزيزى رجاء ..

تحياتى الصادقة مع أشواقى ودعائى، وبعد، فطبيعى أنه لا يغيب عن بالك وتقديرك ما جد على العرب من موقف عسير حرج سيضاعف من خطورة عملك فى الجريدة القطرية، والحق أنى قلق جدا عليك ، وأخشى أن تتورط جريدتك فى خصومة نحو مصر فتتحمل أنت وزرها أو بعضه، ولست أشك فى وطنيتك وفطنتك، ولا فى إحاطتك بأطراف من الموضوع قد تغيب عن مثلي، ولكن عليك لى حق أن تطمئننى عليك وأن تقوى أملى الدائم فى رجوعك ذات يوم مظفرا محمودا بلا حرج ولا متاعب .

اكتب لى يا عزيزى بخواطرك؛ وطمئنى على حالك ، وتقبل من ناحيتى حبى وحب الإخوان الحرافيش.

ودمت للمخلص المحب نجيب محفوظ.

كانت هذه الرسالة التى لم أتوقعها أبداً برداً وسلاماً على قلبى، وقد جعلت منها مصباحاً يهدينى وينير لى الطريق، وكان الوقت وقت فتنة، ولكن العلاقات بين مصر وقطر، على الرغم من القطيعة الرسمية، كانت - والحمد لله.. هادئة، ولم تكن علاقات عاصفة، وقد ساعدنى ذلك على الحذر والاحتياط والخروج من المأزق الذى كان نجيب محفوظ مشفقا عليّ من الوقوع فيه. وأنا أذكر هذه الرسالة، وهذه الواقعة بسعادة وامتنان وعرفان بالجميل ، فهى عندى فيض من وطنية نجيب محفوظ، وهى الوطنية التى أراد لنا نحن محبيه وعارفى قدره وفضله ألا نخرج عليها أبدا، ولعلنا كنا عند حسن ظنه النبيل.

نجيب محفوظ و«أولاد حارتنا»

لاشك أن أخطر ما حدث في حياة نجيب محفوظ «١٩١١-٢٠٠٦»، هو محاولة الاعتداء عليه واغتياله نحو الساعة الخامسة مساء يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٩٤، وقد حدث ذلك وهو خارج الشقة التى يسكن فيها بالدور الأول من العمارة رقم ١٧٢ «شارع النيل» فى حى «العجوزة» مدينة الجيزة. وكان الكاتب الكبير يستعد للذهاب، كعادته كل يوم جمعة، إلى ندوته الأسبوعية التى يلتقى فيها أصدقاءه وتلاميذه ومريديه فى كازينو «قصر النيل».

وكان صديقه الدكتور «فتحى هاشم» يقف في انتظاره لينقله إلى الكازينو بسيارته «الفيات - ريجاتا» الحمراء التى تحمل رقم ٣٢٨٧٩٦ «ملاكى القاهرة»، وبمجرد أن جلس نجيب محفوظ فى المقعد الأمامي، واستدار الطبيب فتحى هاشم ناحية الباب الآخر للسيارة وهم بفتحه، اقترب أحد الأشخاص من نجيب محفوظ، وظن الكاتب الكبير أنه واحد من القراء يتوجه لمصافحته كما، اعتاد منذ سنوات طويلة،

خاصة فى الفترة التى تلت حصوله على جائزة نوبل سنة ١٩٨٨، ولكن الشخص الغريب الذى اقترب من نجيب محفوظ، فاجأ الأديب الكبير واستل «مطواة» كان يخفيها فى ثيابه وطعن نجيب محفوظ فى رقبته، محدثا جرحا غائرا، ثم لاذ بالفرار، ولم يتمكن الطبيب فتحى هاشم المرافق لنجيب محفوظ من ملاحقة المجرم لأنه انشغل فى إسعاف الأديب الكبير ، وكان تصرفه حكيما، فقد أسرع بنقل نجيب محفوظ إلى مستشفى الشرطة بالعجوزة ، والذى يقع على بعد أقل من دقيقة واحدة من مكان الحادث، وتم إدخال محفوظ على الفور إلى غرفة العمليات وهو ينزف، كما تم استدعاء عدد كبير من أهم وأكبر الأطباء المصريين لمتابعة حالته.

هذا هو الوصف العام لمحاولة اغتيال نجيب محفوظ، اعتمدت فيه على الصحف الصادرة فى اليوم التالى للحادث، وقد نجا الأديب الكبير من الموت فى هذه المحاولة الخطيرة لاغتياله، وكتب الله له أن يعيش اثنتى عشرة سنة بعد هذه المحاولة، وإن كان لم يتخلص نهائيا من آثار هذه الطعنة الآثمة. فقد ظل يعانى صعوبة فى حركة يده اليمنى حتى النهاية.

والحقيقة أننا إذا حاولنا أن نبحث عن بداية المتاعب الحقيقية فى حياة نجيب محفوظ، التى انتهت بمحاولة الاغتيال سنة ١٩٩٤، فسوف نجدها كلها أو معظمها تبدأ مع رواية «أولاد حارتنا»، التى انتهى من كتابتها سنة ١٩٥٨، ويحكى نجيب محفوظ نفسه قصة كتابة هذه الرواية، فيقول: أن «أولاد حارتنا» هى أول رواية أكتبها بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، وسبقتها خمس سنوات من الانقطاع التام عن الكتابة، وتحديدا بين عامى ١٩٥٢و ١٩٥٧، وهما من أشق الفترات التى عشتها فى حياتى وأصعبها على نفسى، والحقيقة أننى لم أعرف سببا واضحا لهذا الانقطاع، بعض الأصدقاء قالوا لى أنه نتيجة إجهاد تعرضت له بعد كتابة ثلاثية «بين القصرين- قصر الشوق- السكرية» ، والتى استغرقت منى كتابتها أربع سنوات متصلة، ابتداء من ١٩٤٨ وحتى ١٩٥٢، ولكن ربما كان السبب الأكبر فى توقفى هو أن قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، قتل الرغبة عندى فى الكتابة، فقد كنت أعتبر الهدف الرئيس لكتابتى هو نقد المجتمع المصرى ودفعه للتغيير والتطور، وبعد قيام الثورة واتجاهها لتحقيق ما كنت أنادى به، كان السؤال الذى يلح عليّ هو: ما جدوى الكتابة الآن؟.

الطريف أنه كان في كان في مكتبي سبعة مشروعات كنت أنوى كتابتها، منها رواية اسمها «العتبة الخضراء» وقد حكيت فكرتها لعبد الرحمن الشرقاوى فأعجبته جدا، وقال لى يومها إنه يتمنى أن يكتب في مثل هذا الموضوع واستنكر عدم إكمال الرواية، ولما طالت فترة التوقف وأصبحت كالتائه، استقر في وجداني أنني انتهيت كروائي، وأنه لم يعد عندي ما أقدمه للناس، لدرجة أنني ذهبت إلى نقابة الممثلين وقيدت اسمي ككاتب محترف «للسيناريو»، وكنت قبل ذلك أعمل على سبيل الهواية في كتابة «السيناريو» مع المخرج صلاح أبو سيف، وتصورت أن كتابة «السيناريو» سوف تكون هي عملي الوحيد الذي يمثل لي العزاء ويسد الفراغ الذي تركه الأدب في حياتي، وكنت في تلك الأيام مقبلا على الزواج، وتزوجت بالفعل في عام ١٩٥٤، وكان لابد لي من عمل أحصل منه على دخل إضافي أواجه به مسئوليات الزواج والأسرة الجديدة، وفي أيام عملي ككاتب سيناريو محترف، زاد دخلي بشكل ملحوظ مقارنة بأيام عملي كروائي، والحقيقة أن فترة عملي في كتابة «السيناريو» كانت من أحسن فترات حياتي من الناحية المادية. وفي عام ١٩٥٧، شعرت بدبيب غريب يسري في أوصالي، ووجدت نفسي منجذبا مرة أخرى نحو الأدب،

وكانت فرحتى غامرة عندما أمسكت بالقلم مرة أخرى، ولم أصدق نفسى عندما جلست أمام الورق من جديد لأعاود الكتابة، وكانت كل الأفكار المسيطرة عليّ فى ذلك الوقت تميل ناحية الدين والتصوف والفلسفة ، فجاءت فكرة «أولاد حارتنا» لتحيى فى داخلى الأديب الذى كنت ظننت أنه قد مات، ولذلك لاحظ النقاد تغييرا فى أسلوبى واتجاهاتى الأدبية وهم يقارنون «أولاد حارتنا» بما سبقها من أعمال، فهى لم تناقش مشكلة اجتماعية واضحة كما اعتدت فى أعمالى قبلها، بل هى أقرب إلى النظرة الكونية الإنسانية العامة، ومع ذلك فرواية «أولاد حارتنا» لا تخلو من خلفية اجتماعية واضحة، ولكن المشكلات التى صاحبتها والتفسيرات التى أُعطيت لها، جعلت كثيرين لا يلتفتون إلى هذه الخلفيات.

ثم يقول نجيب محفوظ: انتهيت من كتابة «أولاد حارتنا» فى شهر أبريل سنة ١٩٥٩، وقبل أسبوع من بداية النشر، كتبت الأهرام فى صفحتها الأولى بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩٥٩، خبراً تقول فيه تحت عنوان «الأهرام ينشر قصة نجيب محفوظ الجديدة»!

«اتفق الأهرام مع نجيب محفوظ كاتب القصة الكبير، على

أن ينشر له تباعا قصته الجديدة الطويلة».

إن نجيب محفوظ هو الكاتب الذى استطاع أن يصور الحياة المصرية تصوير فنان مقتدر مبدع، لذلك فإن قصصه كانت حدثا أدبيا بارزا فى تاريخ النهضة الفكرية فى السنوات الأخيرة، ولقد وقّع الأهرام مع نجيب محفوظ عقدا يصبح للأهرام بمقتضاه حق النشر الصحفى لقصته الجديدة مقابل ألف جنيه، والأهرام لا يذكر هذا الرقم، وهو أكبر رقم دفع فى الصحافة العربية لقصة واحدة ، تفاخرا أو ادعاء، وإنما يذكره ليسجل بدء عهد جديد فى تقدير الإنتاج الأدبى.

وقبل نشر «أولاد حارتنا» بيوم واحد، أى فى ٢٠ سبتمبر ١٩٥٩، كتبت «الأهرام» تحت عنوان «قصة نجيب محفوظ ستبدأ فى الأهرام غدا» : .. «تبدأ الأهرام غدا فى نشر قصة نجيب محفوظ «أولاد حارتنا» ولقد اختار الأهرام الفنان الكبير الحسين فوزى ليرسم القصة ، وإذا كان نجيب محفوظ ينتزع مشاعره وانفعالاته ويستلهم وحيه من صميم حياتنا، فإن خطوط الحسين فوزى تخرج من المصدر نفسه».

وفى حوار أجراه الكاتب الصحفى المعروف عادل حمودة

مع الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام، فى الفترة التى نشرت الأهرام فيها «أولاد حارتنا». فى هذا الحوار بين عادل حمودة وهيكل قال هيكل: «بعد أسبوع واحد من النشر، بدأت المشكلات في صورة نقد جاء مباشرة إلينا، وفى خطابات حملها البريد، وبعد شهر بدأت الأصوات ترتفع، وبعد شهر ونصف الشهر، وجدت جمال عبد الناصر يكلمنى فى التليفون وقال: إن الأزهر أو وزارة الأوقاف - لا أذكر - كلمونى عن الرواية. سألته: هل قرأتها، قال: قراءة الأعمال الأدبية مسلسلة لا تريحنى، سأقرأها بعد نشرها فى كتاب.» ثم يقول هيكل في حواره مع عادل حمودة: «أردت أن أكسب وقتا لاستكمال نشر ما بقى من الرواية، فقلت لعبد الناصر: خليهم يعملوا لجنة من رجال الأزهر ويفحصوا الرواية».

وقد جاء قرار اللجنة بمنع النشر، وكان ذلك قبل عشرة أيام من انتهاء النشر، لكن النشر استمر حتى نهاية الرواية، وقد حرصت على أن أختم الحلقة الأخيرة بعبارة: «انتهت الرواية»!.

هذا ما حدث مع رواية «أولاد حارتنا» من وجهة نظر

الناشر وهو «الأهرام» تحت رئاسة تحرير الأستاذ محمد حسنين هيكل، والذى كان رئيسا لتحرير «الأهرام» فى الفترة الممتدة من ١٩٥٧حتى ١٩٧٤، على أن نجيب محفوظ نفسه له رؤيته الخاصة لقصة «أولاد حارتنا» وما جرى لها، فهو يقول فى حديث له معى سنة ١٩٩٠، أى قبل محاولة اغتياله بأربع سنوات: «بدأت جريدة الأهرام فى نشر «أولاد حارتنا» ابتداء من ٢١ سبتمبر سنة ١٩٥٩، ومرت حلقاتها الأولى من دون أن تظهر أى ملاحظات عليها، فالجزء الأول من الرواية لا يثير أية مشكلات، ولكن الأزمة بدأت بعد أن نشرت الصفحة الأدبية بجريدة الجمهورية كلمة، يلفت فيها كاتبها النظر إلى أن الرواية المسلسلة التى تنشرها جريدة «الأهرام» فيها تعريض بالأنبياء، وبعد هذا الخبر المثير، بدأ بعضهم، ومن بينهم أدباء للأسف، فى إرسال عرائض وشكاوى إلى النيابة العامة وشيوخ الأزهر، بل وإلى رئاسة الجمهورية يطالبون فيها بوقف نشر الرواية وتقديمى إلى المحاكمة، وبدأ هؤلاء يحرضون المؤسسات الرسمية ضدى على أساس أن الرواية تتضمن كفرا صريحا، وأن الشخصيات التى تقدمها الرواية ترمز إلى الأنبياء، وقد عرفت هذه المعلومات عن طريق صديق لى هو الأستاذ «مصطفى كامل حبيب» الذى كان يعمل

سكرتيرا لشيخ الأزهر، وكان شقيقه يعمل وكيلا للنيابة، وهو الذى أخبرنى بأن أغلب العرائض التى وصلت إلى النيابة العامة أرسلها أدباء!

ثم يقول نجيب محفوظ: «لقد تعرض رجال الأزهر للخداع، لأنهم لم يحسنوا قراءة الرواية أو فهمها، بل إن بعضهم لم يقرأ رواية أدبية واحدة فى حياته، ومن هنا فسروا رواية «أولاد حارتنا» تفسيرا دينيا، ورأوا شخصية «الجبلاوى» ترمز إلى الله سبحانه وتعالى، أما بقية الشخصيات فقد فسروها بنفس الطريقة، فأدهم هو آدم، وإدريس هو إبليس، وجبل هو موسى، ورفاعة هو المسيح ، أما شخصية قاسم فقد فسروها بأنها شخصية محمد عليه الصلاة والسلام..

وهكذا وقد دافع عن الرواية، الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام فى ذلك الوقت، ولولاه لكان قد توقف عن نشرها الأهرام فورا:

ويواصل نجيب محفوظ حديثه عن هذه الأزمة الكبرى فى تاريخه الأدبي، وفى تاريخ الثقافة العربية كلها فى القرن العشرين، وأقصد بها أزمة رواية «أولاد حارتنا» فيقول:

«بعد انتهاء نشر «أولاد حارتنا» فى «الأهرام»، قابلنى الدكتور «حسن صبرى الخولى» الممثل الشخصى للرئيس عبد الناصر، وكان رجلا فى غاية اللطف ، وقد سبق لنا العمل معا فى الرقابة، هو فى رقابة النشر، وأنا فى الرقابة على المصنفات الفنية «أى المسرح والسينما والغناء»، وقال لى «الخولى» إنه لا يستطيع أن يسمح بنشر «أولاد حارتنا» فى مصر فى «كتاب»، لأنه فى حالة صدوره ستحدث مشكلة كبيرة مع الأزهر، ولكن من الممكن أن يتم نشر الرواية خارج مصر، واقترح عليّ «الخولى» ترتيب لقاء مع عدد من شيوخ الأزهر لمناقشة الرواية، فرحبت بالاقتراح ، فاتفق معى على أن أحضر إلى مكتبه فى يوم محدد، وسوف يدعو بعض شيوخ الأزهر لإجراء المناقشة معى، وفى الموعد المحدد ذهبت إلى مكتب «الخولى» فلم أجد أحدا، وقال لى «الخولى» إنه سوف يتصل بى مرة أخرى لإتمام اللقاء المقترح عندما يتجمع شيوخ الأزهر ويكونون مستعدين لمثل هذا اللقاء الذى لم يتحقق منذ حوالى ثلاثين سنة، وحتى الآن- أى سنة ١٩٩٠».

وفى حدود هذه المعلومات حول رواية «أولاد حارتنا» فإننا

نستطيع أن نخرج بنتيجة أساسية، وهى أن الاعتراض الأول على الرواية كان من جانب رجال الدين، وأن هذا الاعتراض قائم على أساسى تفسير الرواية تفسيرا دينيا فيه إساءة إلى «الذات الإلهية» وإلى أنبياء الله عليهم السلام، ولكننا نجد من ناحية ثانية فى حديث آخر لنجيب محفوظ أنه كان هناك تفسير سياسى للرواية، ينظر إليها على اعتبارها عملا أدبيا يطعن فى النظام القائم وهو نظام عبد الناصر، حيث تريد الرواية، حسب هذا التفسير السياسى أن تنتقد السلطة القائمة وتصفها بالاستبداد، وشخصية «الجبلاوى» فى الرواية ترمز إلى «عبد الناصر»، ويبدو أن هذا التفسير السياسى الغريب كان مصدره بعض الأجهزة الأمنية الأساسية، وعلى رأسها «جهاز المخابرات» الخطير الذى كان يرأسه فى ذلك الوقت صلاح نصر، وبسبب هذا الاعتراض السياسى يروى نجيب محفوظ هذه الواقعة، فيقول فى حديث معى إنه أثناء نشر رواية «أولاد حارتنا» مسلسلة فى الأهرام كنت منتظما فى ندوتنا التى نعقدها كل يوم جمعة فى كازينو «أوبرا». وفى هذه الندوة الأسبوعية لاحظت وجود فتاة جديدة عرفت أنها ابنة أخت الدكتور «حسن صبرى الخولى» الممثل الشخصى للرئيس عبد الناصر، وكانت فتاة ظريفة جدا ولا

أذكر اسمها الآن. وبعد إحدى جلسات الندوة، اقتربت منى هذه الفتاة وهمست فى أذنى بأن سيارة محملة بمجموعة من العسكر ومعهم ضابط برتبة كبيرة ذهبت إلى بيتى لاعتقالى، وقبل أن تصل إلى منزلى جاءها الأمر بالعودة وعدم إكمال المهمة، ولم تذكر الفتاة أى تفاصيل أخرى، ولا أعرف مدى صدق هذه الواقعة، كما لم أحاول التأكد من صحتها، ولكن فى أثناء نشر «أولاد حارتنا» كانت زوجتى تشكو لى من وجود مراقبة مستمرة لها، وأن أشخاصا لا تعرفهم يتتبعون حركتها كلما نزلت إلى الشارع وحتى فى أثناء تجولها فى السوق لشراء احتياجات البيت، وربما لو كنت أنتبه خلال سيرى فى الطريق، لاكتشفت أن هناك من يراقبنى، ولكن الأفكار التى كانت تدور فى ذهنى وأنا أمشى كانت تشغلنى عن مثل هذه الأمور».

إذاً فقد كان هناك تفسير سياسى لرواية «أولاد حارتنا» إلى جانب التفسير الدينى، وهذا التفسير السياسى كان- مثل التفسير الدينى- ضد الرواية أيضا، وكما جاء فى حديث نجيب محفوظ أن «بعض الأصدقاء قالوا لى إن المخابرات كان لديها اعتقاد أن «أولاد حارتنا» هى رواية موجهة ضد النظام، وأنهم اشتموا فيها رائحة مؤامرة، وذهب أصدقاء

آخرون إلى أن الأزمة التى أثارها الأزهر ضد الرواية كانت بتدبير المخابرات نفسها، فقد أرادت أن تستفز مؤسسة دينية كبرى بهدف النيل من نجيب محفوظ، وقد استبعد نجيب نفسه هذا الاحتمال قائلا: إن المخابرات لم تكن بحاجة إلى شئ من ذلك، فقد كانت هذه المخابرات من القوة واتساع السلطة والنفوذ بما يمكنها من تقديمى إلى المحاكمة إذا كان هناك ما يدل عندها على أن الرواية موجهة ضدها أو ضد النظام».

وهكذا يمكننا أن نقول إن غضب السلطة على رواية «أولاد حارتنا» كان محدودا، وأن هذا الغضب قد توقف بعد التفكير فى الأمر والإحساس بأن القول بمعاداة «أولاد حارتنا» للنظام أو للسلطة فى تلك الفترة، أى سنة ١٩٥٩، وما بعدها، هو قول من دون دليل يثبته ويقطع بصحته، ولكن بقى غضب الأزهر على الرواية قائما، وخطورة رأى الأزهر أنه رأى دينى، وأن تأثيره فى الناس أكبر بكثير من تأثيره بالدولة وأجهزتها المختلفة، فإذا قال الأزهر إن الرواية تدعو إلى الكفر والإلحاد، وأن فيها مساسا بالذات الإلهية وبالأنبياء، فإن ذلك سوف يصبح مقبولا من الرأى العام، وسوف يصدقه

الكثيرون لأنه صادر عن جهة دينية مسؤولة وقابلة للتصديق من جانب الجمهور.

على أن الأزهر لم يعلن رأيه بوضوح، ولم يصدر بيانا بموافقة على الرواية، ولا يزال الأمر إلى الآن ، وبعد مرور أكثر من خمس وثلاثين سنة، مجرد لغز غير قابل للتفسير، فالمعروف أن الأزهر كان له موقف ضد الرواية، ولكن أين الدليل على هذا الموقف؟ لقد تعب الكثيرون من الباحثين فى البحث والسؤال عن تقرير الأزهر فلم يعثروا على شئ، وحتى الآن لا توجد ورقة واحدة صادرة عن الأزهر تثبت أن الأزهر يتهم رواية أولاد حارتنا أو يرفضها أو يدعو إلى مصادرتها.. لا شئ من ذلك على الإطلاق، ومع ذلك كله فالثابت فى الأذهان جميعا أن الأزهر ضد الرواية ، وكان نجيب محفوظ مقتنعا كل الاقتناع بأن الأزهر هو - على الأقل - غير راض عن الرواية ، ويبدو أن موقف الأزهر من الرواية كان موقفا شفويا، تم إبلاغه للمسؤولين ، ولم يكن موقفا تم تسجيله فى تقرير للأزهر أو بيان مكتوب من بياناته، ومن هنا يمكن ترتيب الواقع والأحداث على هذه الصورة:

١ – الأزهر غضب من الرواية وأثار الشكوك عند نشرها في الأهرام سنة ١٩٥٩ .

٢ – قام الأزهر بإبلاغ رأيه شفويا إلى رئاسة الجمهورية.

٣ – قام الدكتور حسن صبري الخولي الممثل الشخصي لرئيس الجمهورية بإبلاغ نجيب محفوظ بتحفظات الأزهر، ونصح نجيب محفوظ بعدم السماح بنشر الرواية في مصر، مع إمكان نشرها خارج مصر وهو ما حدث بالفعل، حيث تم نشر الرواية في «دار الآداب» اللبنانية في بيروت.

٤ – ظل نجيب محفوظ حتى آخر لحظة في حياته، متمسكا بعدم نشر «أولاد حارتنا» في مصر، إلا عندما يأذن الأزهر حتى رحيله عن دنيانا صباح يوم الأربعاء ٣٠ أغسطس سنة ٢٠٠٦ .

٥ – لابد هنا من ملاحظة أن أجهزة الأمن في مصر قد بدأت بعد هذه الأزمة تنظر بشئ من الشك إلى نجيب، وتتابع تحركاته وتصرفاته كما تتابع كتاباته، وتحت يدي، وأنا أكتب هذه السطور، رسالة كتبها نجيب محفوظ بخط يده إلى

«مأمور قسم عابدين» وصورة الرسالة بخط يد نجيب مرفقة بهذه الدراسة، والرسالة مصدرها هو كتاب «نجيب محفوظ من القومية إلى العالمية» للأديب الناقد فؤاد دوارة، وهو كتاب صادر عن الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ .

وفى هذه الرسالة يقول نجيب محفوظ:

السيد المحترم/ مأمور قسم عابدين

تحية طيبة .. وبعد،

فأتشرف بإخبار سيادتكم أن مجموعة من الزملاء الأدباء والشادين فى الأدب، قرروا أن يجتمعوا كل صباح جمعة فى كازينو «أوبرا» ما بين الساعة العاشرة صباحاً والثانية عشرة بعد الظهر للمناقشات الأدبية، وقد رأينا إخطار سيادتكم للتفضل بإجراء اللازم والذى يقتضيه القانون العام.

مؤسسة دعم السينما- بتاريخ ١٩٦٢/٣/٢ .

وفى رواية نجيب محفوظ ما حدث لندوة الأوبرا، بعض الطرافة؛ حيث يقول: «جاءنا ضابط برتبة كبيرة وأبلغنا بأن أى تجمع يزيد على خمسة أشخاص لابد أن يحصل على

تصريح من قسم البوليس التابع له مكان الاجتماع، ونبهنا إلى ضرورة الحصول على «إذن كل أسبوع» إذا أردنا أن تكون ندوتنا قانونية، وأصر مأمور القسم كذلك حتى يأذن لنا بإقامة الندوة، بأن نسمح لأحد المخبرين بحضور الندوة، ليقوم بكتابة تقرير عما يدور فيها من أحاديث ومناقشات، المضحك فى الأمر أن المخبر كان يجلس معنا مثل الكرسى لا يفهم شيئا مما يدور حوله، فكيف يصل تفكير «مخبر سرى»، محدود الثقافة والإدراك، إلى فهم أحاديث حول «كافكا» و«سارتر» و«كامى» وأشباههم من كبار الكتاب العالميين!

وفى إحدى المرات، فوجئت بالمخبر السرى فى نهاية الندوة يتعلق بثيابى ويرجونى متوسلا أن أساعده فى كتابة التقرير الذى سيرفعه إلى المأمور، لأنه لم يفهم كلمة واحدة مما قلنا، ويخشى أن يتعرض للعقاب، إن هو عاد إلى قسم الشرطة خالى الوفاض، ولم ينجز ما عهد إليه، وبالفعل كنت ألخص له الندوة، وتدريجيا كدت أتحول أنا نفسى إلى «مخبر سري»!

وهكذا بدأت مشكلات نجيب محفوظ مع السلطة ،

ولكنها ظلت فى إطار محدود، ولم تتجاوز الحدود إلى اعتقاله أو مصادرة عمل من أعماله، باستثناء تلك النصيحة الشفوية التى سمعها «نجيب محفوظ» من «حسن صبرى الخولى» الممثل الشخصى للرئيس عبد الناصر بألا يسمح بنشر رواية «أولاد حارتنا» فى مصر، تجنبا لغضب الأزهر، مع عدم الاعتراض من جانب الدولة على نشرها خارج مصر.

وفى سنة ١٩٩٤، أى بعد نشر «أولاد حارتنا» فى الأهرام بنحو خمس وثلاثين سنة، تعرض نجيب محفوظ لمحاولة الاغتيال فى ١٤ أكتوبر من هذه السنة، وكان سبب المحاولة هو رواية «أولاد حارتنا»، وما قيل للإرهابى القاتل من أن الرواية فيها خروج على الدين وإساءة لأنبياء الله.

خمس وثلاثون سنة - بعد ظهور - الرواية - تمر بسلام من دون أن يتعرض نجيب محفوظ لأى أذى، ثم فجأة تحدث محاولة لاغتياله أوشكت على النجاح لولا عناية الله وسرعة نقلة إلى المستشفى المجاور لبيته.

ما الذى تغير إذاً حتى تقع محاولة الاغتيال هذه، وبعدها

يصبح نجيب محفوظ غير قادر على التحرك خطوة واحدة إلا في حراسة الشرطة، وظل كذلك حتى وفاته؟

حقاً ، لقد تغيرت الدنيا سنة ١٩٩٤ ، وما قبلها بسنوات ومنذ وفاة عبد الناصر وتولى السادات السلطة في مصر.

في عصر عبد الناصر كان هناك أمران حاكمان لحركة الحياة في مصر، الأمر الأول هو الضعف إلى حد الاختفاء للتيارات الدينية بصورة عامة وللقيادات المتطرفة على وجه الخصوص؛ فقد كان نظام عبد الناصر متشددا جدا في الفصل بين الدين والسياسة، وقد ضرب عبد الناصر التنظيمات الدينية السياسية بعنف شديد كما هو معروف، وكان على رأس هذه التيارات التي حاربها عبد الناصر دون هوادة تيار «الإخوان المسلمون»، ولم يكن بالإمكان مطلقا أن يظهر تيار إسلامي أكثر تطرفا من الإخوان في عصر عبد الناصر، كما حدث في عهد السادات.

من ناحية أخرى، كان عصر عبد الناصر محكوما بقضايا كبرى وأساسية تشغل الناس وتصرف الأنظار عن غيرها من القضايا. وعلى رأس القضايا التي انشغل بها أهل مصر في

عصر عبد الناصر قضية المقاومة للصهيونية وإسرائيل، فقد كانت هذه القضية موضع تعبئة عامة فى مصر كلها، ولم يكن من السهل زحزحة القضايا التى تشغل الناس وتستولى على اهتمامهم.

ولم تكن قضية المقاومة ضد الصهيونية وإسرائيل على أهميتها، هى القضية الوحيدة التى كانت تشغل الناس فى عصر عبد الناصر فقد كان هناك قضايا أخرى كبيرة مثل الوحدة العربية، وبناء السد العالى، وحرب اليمن، وتصنيع مصر وتحويلها إلى مجتمع يقوم على المساواة والعدالة ولا مكان فيه للاستغلال الاقتصادى، وما يتبعه من أوضاع سياسية سيئة.

فى هذا المناخ الفكرى والسياسى فى عصر عبد الناصر، لم يكن هناك مجال لأفكار متطرفة فى الدين، بل كان السائد فى التفكير الدينى هو الاعتدال الشديد، والانصراف إلى البحث عما فى الدين من حلول لمشكلات الناس الكبرى والحقيقة، مثل التقدم والنهضة والتحرر التام من النفوذ الاستعمارى.. وغير ذلك من القضايا الجوهرية.

فى مثل هذا المجتمع كان من الصعب أن تتردد اتهامات مثل الإلحاد والخروج على الدين والكفر بالله وما إلى ذلك، إذ يكاد هذا النوع من الاتهامات يختفى فى عصر عبدالناصر أمام القضايا الأخرى الكبيرة التى كانت تشغل الناس، وفى هذا المجتمع عاش نجيب محفوظ آمناً ومرت روايته «أولاد حارتنا» من دون أن يتعرض بسببها لاتهامات عنيفة وصريحة فى دينه وعقيدته، أو للمطالبة بعقابه عقاب الذين ارتدوا عن الإسلام ، وهو الإعدام أو القتل أو الاغتيال.

ثم جاء عصر السادات بعد رحيل عبد الناصر سنة ١٩٧٠، وفى عصر السادات وقعت تغيرات كبيرة جدا فى مصر وهى تغيرات معروفة، ولا مجال لذكرها بالتفصيل، ولكننا لابد أن نتوقف عند ما يتصل بموضوعنا، وهو عودة التيارات الدينية إلى الساحة العامة فى مصر بقوة، وكانت البداية هى اقتناع السادات نفسه بإطلاق الحرية للتيارات الدينية التى سوف تساعده، كما كان يتصور، على الوقوف فى وجه أعدائه اليساريين والناصريين، يضاف إلى ذلك أن السادات خطا خطوته، أو قفزته الكبرى نحو السلام مع إسرائيل بزيارته المعروفة لها سنة ١٩٧٧، ثم توقيع اتفاقية

- كامب ديفيد معها سنة ١٩٧٩، وكان ذلك من الناحية العملية معناه وضع ستار على القضية الرئيسية الكبرى التى كانت تشغل شعب مصر وهى قضية الحزب مع إسرائيل، فلم تعد هناك حرب، ولم تعد هناك تعبئة ، من أجل هذه الحرب، وأطلق السادات عبارته الشهيرة وهى «أن حرب ١٩٧٣، هى آخر الحروب» ثم صاحب ذلك كله حركة واسعة للتراجع عن مشروعات عبد الناصر فى كل المجالات ، ابتداء من السياسة إلى الاقتصاد إلى العلاقات العربية والدولية وغير ذلك.

ثم حدثت تغيرات عالمية كبرى، فقامت الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩ ، وهى ثورة تعتمد على أساس دينى، وقد خلعت الشاه، وغيّرت نظام إيران، وأصبحت إيران بعدها جمهورية إسلامية، ثم جاء التغيير الأكبر فى العالم كله سنة ١٩٩١، عندما انهار الاتحاد السوفيتى، وما تله ذلك من توحيد ألمانيا، وخروج دول أوروبا الشرقية من المعسكر الاشتراكى بصورة نهائية.

وقد أحدثت هذه التغيرات الكبرى آثارها الواسعة فى العالم كله، وبالنسبة إلى مصر فقد ازدهرت فيها التيارات

الدينية، ولم تعد هذه التيارات مقتصرة على التيارات المعتدلة، بل لقد أصبح للتطرف وجود وقوة وسلطان واسع على التنظيمات الدينية المختلفة.

هذا هو المناخ الجديد المتطرف الذى شجعه السادات منذ توليه السلطة فى أوائل السبعينيات من القرن الماضى، ثم دفع ثمنه غاليا بتعرضه للاغتيال سنة ١٩٨١، على يد أفراد من هذا التيار الذى كان يحظى بتشجيعه فى البداية وأفلت بعد ذلك من سيطرته عليه ، وهو المناخ الذى ساعدته ظروف أخرى كثيرة، منها خلو مصر من قضايا كبرى تشغلها وتستأثر باهتمامها وطاقتها بعد «كامب ديفيد»، وبعد قول السادات إن حرب ١٩٧٣ هى آخر الحروب، ومن هذه الظروف أيضا تلك الظروف العالمية التى أدت إلى نجاح الثورة الدينية فى إيران وأدت أيضا إلى الانهيار الكبير للاتحاد السوفيتى.

فى هذا المناخ ازدهرت التيارات الدينية فى مصر، وأصبح للمتطرفين الدينيين أكثر من تنظيم يقدم إليهم الفتوى ويدفعهم إلى حمل السلاح لتغيير المجتمع القديم الذى هو فى نظرهم مجتمع جاهلى كافر، ليحل محله - بقوة السلاح - مجتمع

جـديد يؤمن بالله ويلتـزم أصـول الدين كـمـا يراه هؤلاء المتشددون.

وفي هذا المناخ المتوتر العنيف، ظهرت الفتاوى بتكفير نجيب محفوظ، واعتبار رواية «أولاد حارتنا» كفرا صريحا، والحكم عليه دون الاستماع إليه بأنه مرتد يستحق الإعدام، وهذا ما نرجو أن نستكمل البحث فيه بالتفصيل في الجزء الثاني من هذه الدراسة، حيث نتوقف أمام أول فتوى بتكفير نجيب محفوظ، وأمام نماذج من التفسير الديني المتطرف للرواية، والذي قام به بعض علماء الدين ليثبتوا بذلك إدانة نجيب محفوظ .. كما نتعرض لهذه الآراء والفتاوى بالنقد والدراسة على ضوء الرواية نفسها، حيث يبدو التفسير الديني المتطرف لها قائما على نوع من الافتعال لا يراه عقل ولا دين، كما أننا سوف نستعرض بعض آراء رجال الدين الكبار المستنيرين الذين كتبوا في تبرئة نجيب محفوظ وروايته ما هو جدير بالتأمل والدراسة والأخذ به، لأن الذين قالوا بهذه الآراء من رجال الفكر الديني هم من أصحاب المكانة الفكرية العالية المعترف بها من أمثال الدكتور أحمد كمال أبو المجد والدكتور محمد سليم العوا.

مصادر الدراسة

١ - «نجيب محفوظ من القومية إلى العالمية» تأليف فؤاد دواره ، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٩ .

٢- «في حب نجيب محفوظ» - تأليف رجاء النقاش، الطبعة الثانية ، دار الشروق، ٢٠٠٦ .

٣- «نجيب محفوظ - صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته» تأليف رجاء النقاش، مركز الأهرام للترجمة والنشر- الطبعة الأولى ١٩٩٨ .

٤ - «مجلة الهلال» - عدد خاص عن نجيب محفوظ - فبراير ١٩٧٠».

٥ - مجلة «روز اليوسف» ملف خاص عن «أولاد حارتنا» تقديم عادل حمودة، في ٣١ أكتوبر سنة ١٩٩٤ .

ما الحقيقة فى مصادرة رواية «أولاد حارتنا»؟

رواية «أولاد حارتنا» التى كتبها نجيب محفوظ، فى الفترة ما بين شهر أكتوبر سنة ١٩٥٧، وأتم كتابتها فى شهر أبريل سنة ١٩٥٨، هى رواية تحتل مكانة خاصة فى الأدب العربى المعاصر، لأسباب متعددة، فهى أول رواية يكتبها نجيب محفوظ بعد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، وكانت الرواية التى كتبها نجيب قبل «أولاد حارتنا» هى روايته الشهيرة المعروفة باسم «الثلاثية» وهى تحمل أسماء «بين القصرين» و«قصر الشوق» و«السكرية»، والأسماء الثلاثة هى أسماء شوارع فى حى «الجمالية» الشعبى الشهير، وهو الحى الذى ولد فيه نجيب محفوظ، فيه يوم الاثنين ١١ ديسمبر ١٩١١، وعاش نجيب محفوظ فى فترة طفولته وصباه قبل أن ينتقل إلى حى «العباسية»، الذى هو امتداد لحى «الجمالية»، وكان ميلاد نجيب محفوظ فى بيت يحمل رقم ٨ فى ميدان اسمه «بيت القاضى» فى حى الجمالية. وفى سنة ١٩٢٠، عندما بلغ نجيب محفوظ التاسعة من عمره، انتقل نجيب مع أسرته إلى

حى العباسية، وسكن فى بيت يملكه والده وهو بيت من دور واحد وفي خلفيته حديقة صغيرة، وكان عنوان هذا البيت هو ٩ شارع «رضوان شكري» وقد تم هدمه بعد أن ازدحمت منطقة العباسية، وتحول البيت إلى عمارة سكنية، وكانت أسرة نجيب محفوظ قد باعت البيت بعد وفاة الأب سنة ١٩٣٢ .

ونعود إلى رواية «أولاد حارتنا»، فنقول إنها كانت هامة جدا فى أدب نجيب محفوظ. ويعود ذلك إلى أسباب متعددة، أولها: أن نجيب محفوظ قد كتبها بعد فترة انقطاع عن الكتابة الأدبية دامت خمس سنوات، تمتد من سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٥٧، ويقول نجيب محفوظ نفسه عن فترة الانقطاع الطويلة هذه، وذلك فى الكتاب الذى أجريت فيه أحاديث مطولة وتفصيلية معه، وصدر تحت عنوان «نجيب محفوظ- صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته». يقول نجيب: «أولاد حارتنا» هى أول رواية أكتبها بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، وسبقتها خمس سنوات من الانقطاع التام عن الكتابة، وتحديدا بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٧، وهي من أشق الفترات التى عشتها فى حياتى وأصعبها على نفسى،

والحقيقة أننى لم أعرف سببا واضحا لهذا الانقطاع. بعض الأصدقاء قالوا إنه نتيجة إجهاد حدث لى بعد كتابة «الثلاثية»، والتى استغرقت منى فى كتابتها ٤ سنوات متصلة، ابتداء من العام ١٩٤٨ وحتى العام ١٩٥٢، ولكن ربما كان السبب الأقوى لانقطاعى عن الكتابة هو أن قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، قد قتل الرغبة عندى فى الكتابة . فقد كنت أعتبر الهدف الرئيسى لكتاباتى هو نقد المجتمع المصرى ودفعه للتغيير والتطور. وبعد قيام الثورة واتجاهها لتحقيق ما كنت أنادى به، كان السؤال الذى يلح علىّ هو: ما جدوى الكتابة بعد الثورة؟. الطريف أنه كان فى مكتبى سبعة مشروعات لروايات كنت أنوى كتابتها، منها رواية اسمها «العتبة الخضراء»، وقد حكيت فكرتها لعبد الرحمن الشرقاوى فأعجبته جدا، وقال لى يومها إنه تمنى أن يكتب هذا الموضوع واستنكر عدم إكمال الرواية، ولما طالت فترة توقفى عن الكتابة أصبحت كالتائه، واستقر فى وجدانى اننى انتهيت كروائى ، وأنه لم يعد عندى جديد أقدمه للناس».

ثم يقول نجيب محفوظ بعد ذلك إنه: «فى العام ١٩٥٧،

وبعد توقف عن الكتابة دام خمس سنوات، شعرت بدبيب غريب يسرى فى أوصالى، ووجدت نفسى منجذبا مرة أخرى نحو الأدب، وكانت فرحتى غامرة عندما أمسكت بالقلم من جديد، ولم أصدق نفسى عندما جلست أمام الورق وعدت إلى الكتابة، وكانت كل الأفكار المسيطرة على عقلى ونفسى فى ذلك الوقت تميل ناحية الدين والتصوف والفلسفة، فجاءت «أولاد حارتنا» لتعيد إلى الحياة فى داخلى ذلك الأديب الروائى الذى كنت ظننت أنه قد مات».

فالأهمية الأولى لرواية «أولاد حارتنا» ترجع إلى أنها أعادت نجيب محفوظ إلى الكتابة بعد توقف دام خمس سنوات متواصلة، وهى فترة توقف طويلة جدا بالنسبة لكاتب وأديب مثابر مجتهد، لم يتوقف عن الكتابة المنتظمة منذ تخرجه من جامعة القاهرة سنة ١٩٣٤، بل وقبل ذلك، إذ كان يكتب وينشر كتاباته وهو طالب فى الجامعة، والأهمية الثانية لرواية «أولاد حارتنا» أنها تمثل نوعا من التحول الكامل فى أدب نجيب محفوظ، فبعد أن كان النبع الأساسى لأدبه هو النبع الواقعى الاجتماعى الذى يعتمد على الوصف التفصيلى للأحداث والشخصيات، انتقل نجيب محفوظ إلى عالم روحانى

ملئ بالشفافية والشاعرية والرمز والإيجاز، كل ذلك دون أن يغفل عقله وقلبه عن مشاكل المجتمع والمتاعب الواقعية التى تحاصر الإنسان فى حاضره ومستقبله، ولكن الواقع الاجتماعى تحول بين يديه- بلغة العلوم الرياضية- من «كتلة» إلى «طاقة»، ومن «مادة ثابتة وجامدة» إلى «انفجار» يشبه «الانفجار الذرى»، وهو هنا انفجار أدبى ومعنوى، يهتم فيه نجيب محفوظ بالاضطرابات النفسية والروحية الناشئة عن ظروف اجتماعية أو فكرية صعبة لا يملك الإنسان أمامها أية قدرة على التصرف، مما يقوده إلى ذلك العالم الذى نطلق عليه أحيانا اسم «عالم اللا معقول»، وقد كان فى الاتجاه الجديد لنجيب محفوظ، ابتداء من رواية «أولاد حارتنا» خيرا كثيرا، إذ إنه أطلق موهبة نجيب محفوظ إلى آفاق إنسانية واسعة وروحية، وهذا الاتجاه الجديد هو الذى وصل به إلى العالمية، حيث حصل على جائزة نوبل سنة ١٩٨٨، بعد أن مست روايته المترجمة نفوس الكثيرين فى شتى أنحاء الأرض.

على أن رواية «أولاد حارتنا» لها أهمية أخرى كبيرة فى الأدب العربى المعاصر، وفى حياة نجيب محفوظ أيضا، فهذه الرواية كانت السبب فى تعرض نجيب محفوظ لمحاولة -

كادت تنجح - لاغتياله فى مساء يوم الجمعة ١٤ أكتوبر سنة ١٩٩٤، وقد قام بالمحاولة شاب متطرف اسمه «محمد ناجى محمد» طعن نجيب محفوظ فى رقبته باستخدام «مطواة».

وقد قال المتهم فى التحقيق معه، إنه لم يقرأ الرواية، ولكن تكليفا صدر إليه، وإلى مجموعة من زملائه من قيادة تنظيم «الجماعة الإسلامية» بقتل المؤلف لتعرضه للدين الإسلامى فى رواية «أولاد حارتنا»، وأضاف الشاب الذى قام بالمحاولة الإجرامية «أنه ليس نادما على محاولته، وأنه لو قدر له الخروج من السجن فسوف يعيد المحاولة من جديد». وقبل المحاولة بحوالى خمس سنوات، وبالتحديد فى أبريل سنة ١٩٨٩، كان أحد زعماء «الجماعة الإسلامية» البارزين وهو الشيخ «عمر عبد الرحمن» المسجون حاليا فى أمريكا مدى الحياة لاتهامه بتدبير جرائم إرهابية داخل الولايات المتحدة.. كان هذا الزعيم المتطرف قد أصدر فتوى بإهدار دم نجيب محفوظ، وقد نشرت جريدة «الأنباء» الكويتية فى أبريل سنة ١٩٨٩، هذه الفتوى فى حديث مع الشيخ عمر عبد الرحمن، حيث قال الشيخ بالنص:

« إنه من ناحية الحكم الإسلامى، فإن سلمان رشدى

ومثله نجيب محفوظ مرتدان، وكل من يتكلم عن الإسلام بسوء فهو مرتد، والحكم الشرعي أن يستتاب، فإن لم يتب وجب قتله، ولو نفذ هذا الحكم في نجيب محفوظ عندما كتب «أولاد حارتنا» لتأدب «سلمان رشدي»، وقد ظلت هذه الفتوى الخطيرة التي أصدرها الشيخ عمر عبد الرحمن تعمل عملها حتى انتهت بمحاولة اغتيال نجيب محفوظ سنة ١٩٩٤ .

وهنا يظهر سؤال مهم هو: لماذا تحركت قضية أولاد حارتنا في الثمانينيات والتسعينيات، رغم أنها كانت مكتوبة سنة ١٩٥٧، وقد نشرتها جريدة الأهرام على شكل مسلسل روائي سنة ١٩٥٩؟

الفرق بالتحديد هو الفرق بين مجتمعين في مصر الحديثة، هما مجتمع عبد الناصر ومجتمع السادات، فمجتمع عبد الناصر- مهما اختلفت الآراء حوله - كان مجتمعا منضبطا، وكانت الدولة فيه بالغة القوة، وكانت التنظيمات السرية المتطرفة في أي اتجاه - يمينا أو يسارا أو سياسة أو دينا - مستحيلة تماما في ذلك المجتمع، وكانت كل مؤسسات المجتمع مؤسسات علنية قانونية ظاهرة ، ولم يكن

للمؤسسات أو المنظمات السرية أى وجود ، ولذلك كانت الآراء المختلفة تعبر عن نفسها بطريقة علنية ظاهرة، ويتم اتخاذ القرار بالنسبة لهذه الآراء في سرعة وحزم، أما مجتمع السادات فقد أصيب بنوع من «الفلتان» أو «التسيب»، وقد ساهم السادات نفسه مساهمة فعالة فى الوصول بالمجتمع في مصر إلى أفكار يسارية ، ومن بينها الأفكار الناصرية التي كان يعتبرها صورة من صور الأفكار اليسارية. كذلك كان السادات يفكر تفكير إقليميا خالصا ، وكان يكره الاتجاه العروبى الذى يربط مصير مصر بالأمة العربية.

وكان السادات يخشى أشد الخشية من هذه التيارات اليسارية والناصرية والعروبية فى مصر، وكان يظن أنه ما لم يقتلع هذه التيارات الفكرية من جذورها فلن يستقر له حكم مصر على الإطلاق، ولأن السادات كان رجل مغامرات ومجازفات وقفزات فى الهواء لا تعتمد على أساس من التحليل الدقيق والتفكير المنطقى السليم، فقد هداه تفكيره العشوائى وغير المنطقى إلى أن الحل المناسب لاقتلاع الأفكار المناهضة له والتى كان يخشى منها أشد الخشية، هو إحياء

التيار الديني المتطرف العنيف ومسأندته بكل أسباب القوة من مال وسلاح، حتى يتصدى للتيارات اليسارية والناصرية والعروبية، فالسادات كان يتصور أن التيار الديني المتطرف إذا وجد التشجيع والفرصة، فإنه لديه من قوة الاندفاع ما يساعده على صد التيارات الأخرى وردعها بعنف. وقد تصور السادات أنه قادر على استخدام التيار المتطرف الذي قام بإحيائه، وأنه قادر على التحكم في هذا التيار، ولم يدرك مطلقا أن هذا التيار عندما يتدفق مثل الشلال، فإنه يشق لنفسه مجرى خاصا به، ولا يمكن لأحد أن يسيطر على هذا التيار من خارجه، وقد شاءت الأقدار أن يكون مقتل السادات على يد هذا التيار الذي غذاه وأمده بكل عناصر القوة لمحاربة أعدائه ومعارضيه والذين كانوا يهددون سلطته وحكمه للبلاد.

ونعود إلى «أولاد حارتنا» لنرى أنها ظهرت في عصر عبد الناصر، وأن أكبر جريدة كانت مرتبطة بسلطة عبد الناصر، وهي جريدة «الأهرام»، قد نشرتها على شكل رواية مسلسلة، وأن أزمة الرواية بدأت في عصر عبد الناصر، ولكن الدولة القوية ذات المؤسسات العلنية والقادرة على اقتلاع كافة المنظمات السرية وكبح جماحها بل والقضاء عليها تماما.

هـذه الدولة القـوية استطاعت أن تتـعـامل مع الأزمـة فى سرعـة وحزم، واسـتطاعت أن تضع لهـا حدا حكيمـا ونهـاية عاقلة.

لقـد ثار عـدد كـبيـر من رجـال الدين ضـد رواية «أولاد حارتنا» أثناء نشر الرواية على حلقات مسلسلة فى الأهرام، ولكن الدولة لم تتخذ أي قرار بوقف نشر الرواية، فتم نشرها بالكامل على صـفـحات «الأهرام»، وذلك لأن وقف النشـر كان يعنى أن الدولة قـد تقـبلت الرأى المعـارض للرواية، والذى يفسـرها على أنهـا روايـة مـعـادية للدين، ولم يكن مـثل هذا الموقف يخدم أى شئ، بل كـان مـعناه أن الدولة قـد ضـعـفت وارتعدت وخـضـعت لرأى فى الرواية ليس هو الرأى الوحـيد، إذ إن هناك رأيا آخر ينفى عن الرواية أى طابع عدائى للدين، فلماذا تأخذ الدولة بالرأى الذى «يتهم»، ولا تـأخذ بالرأى الذى يدافع وينفى الاتهـام؟ أمـا تفـاصـيل القـصـة، فنتـرك نجـيب مـحفوظ نفسـه يرويها بلسـانه، وذلك فى أحـاديثـه مـعى والتى نشـرتهـا فى كـتـابى الذى سـبقت الإشـارة إليـه وهو «نجيب مـحفوظ – صـفـحات من مذكراته وأضـواء على أدبـه وحيـاته». يقول نجيب مـحفوظ، وفى كلامه كثير من المعانى التى تثير الحـزن والأسف: «بدأت جـريدة الأهرام» فى نشـر رواية أولاد

حارتنا، ومرت حلقاتها الأولى دون أن تظهر أية ملاحظات عليها، فالجزء الأول لا يسبب أية مشاكل، ولكن الأزمة بدأت بعد أن نشرت الصفحة الأدبية بجريدة «الجمهورية» خبرا يلفت فيه كاتبه النظر إلى أن الرواية المسلسلة التى تنشرها جريدة «الأهرام» فيها ما يمس الدين. بعد هذا الخبر المثير، بدأ البعض، ومن بينهم أدباء للأسف، فى إرسال عرائض وشكاوى إلى النيابة العامة ومشيخة الأزهر، يطالبون فيها بوقف نشر الرواية وتقديمى إلى المحاكمة، وبدأ هؤلاء يحرضون الأزهر ضدى على أساس أن الرواية تتضمن كفرا صريحا، وقد عرفت هذه المعلومات عن طريق صديق لى هو الأستاذ مصطفى حبيب الذى كان يعمل سكرتيرا لشيخ الأزهر، وكان شقيقه يعمل وكيل نيابة، وهو الذى أخبرنى أن معظم العرائض التى وصلت إلى النيابة العامة ضدى أرسلها أدباء، وتعرض رجال الأزهر للخداع فى هذه الأزمة، لأنهم لم يحسنوا قراءة الرواية وفهمها دينيا، وقد دافع عن الرواية الأستاذ محمد حسنين هيكل، رئيس تحرير الأهرام».

ثم يواصل نجيب محفوظ حديثه فيقول:

بعد انتهاء نشر رواية «أولاد حارتنا» فى «الأهرام» قابلنى

الدكتور حسن صبرى الخولى الممثل الشخصى للرئيس عبد الناصر، وكان رجلا فى غاية اللطف، وقد سبق لنا العمل معا فى الرقابة، هو فى رقابة النشر، وأنا فى رقابة المصنفات الفنية، وقال لى «الخولى» إنه لا يستطيع أن يسمح بنشر رواية «أولاد حارتنا» فى مصر ككتاب، لأنه فى حالة صدورها فى كتاب سوف تحدث مشكلة كبيرة مع الأزهر، ولكن من الممكن نشر الرواية خارج مصر، واقترح «الخولى» ترتيب لقاء مع عدد من شيوخ الأزهر لمناقشة الرواية، ورحبت بالاقتراح، فاتفق معى على أن أحضر إلى مكتبه فى يوم محدد، وسوف يدعو هو شيوخ الأزهر لإجراء المناقشة معى، وفى الموعد المحدد ذهبت إلى مكتب «الخولى» فلم أجد أحدا، وقال لى «الخولى» إنه سوف يتصل بى لإتمام اللقاء المقترح عندما يجتمعون، ولازلت فى انتظار المقابلة منذ خمسة وثلاثين عاما، ولم تتم».

ثم يقول نجيب محفوظ:

«نامت الأزمة بعد ذلك فترة طويلة ثم انفجرت فى اليوم التالى لحصولى على جائزة نوبل، خاصة بعدما تردد أننى حصلت على الجائزة بسبب الرواية».

وننتهى من ذلك كله بالنتائج العامة الآتية.

أولا: كانت رواية «أولاد حارتنا» رواية رائعة من الناحية الفنية ، ولم يكن فيها لفظ واحد يمكن أن يتيح للذين أساءوا تفسيرها أن يجدوا دليلا قاطعا على صحة تفسيرهم السيىء.

ثانيا: كان الاتهام ضد الرواية قائما على تفسير نوايا الكاتب الخفية، ولم يكن قائما على النص الصريح الظاهر للرواية، لأن النص نفسه لا يتيح لأحد أن يأخذ التفسير السيئ إلى النوايا الخفية للكاتب وتأويل رموزه، مما يضعف جهة الاتهام.

ثالثا: إن الرواية بسبب قوتها وجمالها ودقة هندستها الفنية كانت تحتمل تفسيرات كثيرة متعددة لها حججها وبراهينها القوية، مما يجعل هناك تعددا فى التفسير لهذه الرواية، والتعدد القائم على أسباب قوية يجعل اتهام الرواية ضعيفا، لأن القاعدة القانونية والتشريعية الحكيمة تقول: «ادرأوا الحدود بالشبهات»، وادرأوا معناها امنعوا، والحدود هى العقوبات، فإذا كانت هناك شبهات تجعل الاتهام غير قاطع وغير نهائى، فإن التشريع الحكيم يمنع العقوبة والإدانة.

رابعا: كان موقف الحكومة فى عهد عبد الناصر فى منتهى الحكمة والحزم ، فهى لم تمنع نشر الرواية فى جريدة «الأهرام»، ولم توقف النشر عندما ظهرت الاعتراضات على الرواية، لأن هذه الاعتراضات لم يكن فيها من نص الرواية نفسها ما يدين الرواية بصورة قاطعة ونهائية، ولذلك لم تستجب الدولة لرأى من هذا النوع لا يملك حجة ثابتة.

خامسا: تصرفت الدولة بمنتهى الحكمة، عندما نصحت نجيب محفوظ بنشر الرواية فى كتاب خارج مصر، ورأت عدم نشر الكتاب فى مصر، لمنع إثارة عاصفة لابد من السيطرة عليها قبل أن تهب، وقد أخذ نجيب محفوظ بالنصيحة وتقبلها دون إحساس بأى ضغط عليه، ولم تصدر الدولة أى قرار بمصادرة الرواية، واعتبرت أن «الاتفاق» بينها وبين نجيب محفوظ على نشر الرواية خارج مصر هو بديل محترم لإصدار قرار بالمصادرة، وقد قامت «دار الآداب» فى بيروت بإصدار الرواية، ولا تزال تصدر طبعاتها المتتالية منذ الستينيات حتى الآن، ولم يصدر قرار من الدولة بمنع دخول الرواية المطبوعة في بيروت إلى مصر.

وهكذا تم احتواء العاصفة فى عهد عبد الناصر، بالحكمة

وقوة الدولة، وانعدام وجود تنظيمات سرية متطرفة تحت «القشرة الأرضية السياسية» لأن الدولة كانت قوية، وكانت ترفض السماح بوجود أية جذور أو بذور لمثل هذه التنظيمات المتطرفة.

ولكن الأمور أفلتت فى عهد السادات، حتى وصلت إلى ذروتها فى محاولة اغتيال نجيب محفوظ سنة ١٩٩٤، وقبل ذلك، تم اغتيال السادات نفسه سنة ١٩٨١، على يد المتطرفين، وأصل المأساة يعود إلى تشجيع السادات للمتطرفين بالمال والسلاح، ظنا منه أنهم سيكونون أداة قوية فى يده ضد أعدائه السياسيين، وهذا ما أسميه باسم «الفلتان» فى عهد السادات، مع سوء تقدير هذا الزعيم السياسى للأمور، وإقدامه على أن يلعب بالنار، إذ أن مجتمع مصر بل وكل المجتمعات العربية لا يمكن أن تتحمل التطرف، ولا يمكن حتى لمن أوجده أن يستأنسه أو يسيطر عليه.

«أولاد حارتنا» عاصفة فى رواية

فى أكتوبر سنة ١٩٨٨، أعلنت لجنة جائزة نوبل تقديم جائزتها الأدبية فى ذلك العام إلى الأديب المصرى العربى نجيب محفوظ، ويتصادف أن يكون عام ١٩٨٨، هو نفسه العام الذى صدرت فيه رواية «آيات شيطانية» للكاتب الإنجليزى ذى الأصل الهندى «سلمان رشدى»، فقد صدرت رواية «آيات شيطانية» قبل نحو شهر فقط من إعلان فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل، وكان حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل سببا لإثارة ضجة كبرى فى العالم العربى، بل فى العالم كله، لأنها كانت المرة الأولى التى ينال فيها الأدب العربى هذه الالتفاتة العالمية المهمة، والحقيقة أن هذه الجائزة رفعت المعنويات العربية عند ملايين المواطنين، من الخليج إلى المحيط، وذلك لأن العرب فى تلك الأيام كانوا يعانون ظروفا بالغة السوء، حيث كانت إسرائيل تواصل احتلالها للأراضى العربية فى فلسطين ولبنان وسوريا، وكانت مدينة «طابا» المصرية التى تقع على ساحل البحر الأحمر لا تزال تحت

السيطرة الإسرائيلية، وكانت هناك محكمة دولية تنظر فى الخلاف بين مصر وإسرائيل، وقد انتهى الأمر بتثبيت نسبة «طابا» إلى مصر، ولم تستطع إسرائيل إلا أن تستجيب لقرار المحكمة الدولية، فعادت «طابا» إلى مصر بالفعل، وفى تلك الأيام أيضا كانت الحرب العراقية - الإيرانية فى ذروتها، وكانت خسائر الطرفين تزداد كل يوم حتى بلغت مئات الآلاف من القتلى على الجانبين، إضافة إلى الخسائر المادية الهائلة، وقد انعكست هذه الظروف الصعبة جميعها على نفوس العرب فى كل مكان، ولم يكن من العسير على أى باحث أو مراقب محايد أن يلاحظ ما يعانيه العرب من حالة الإحباط والاكتئاب الشديدين، فهم يتألمون فى حاضرهم، ولا يجدون أمامهم نورا يهديهم إلى مستقبل واضح آمن.

فى هذه الظروف جاءت جائزة نوبل إلى نجيب محفوظ، فأحدثت صدمة من الدهشة والفرح فى النفوس العربية بصورة عامة، ولكن هذه الجائزة أيقظت بعض الغضب والضيق عند جماعات من المتطرفين الذين يرفضون حضارة الغرب، ويمتلئون بالشك فى كل ما يأتى من هذا الغرب، وهؤلاء المتطرفون كانوا قد ازدادوا قوة وتنظيما وشراسة منذ أن أطلق لهم الرئيس الراحل أنور السادات حرية العمل على

نطاق واسع فى السبعينيات، ظنا من السادات أن هذه الجماعات المتطرفة التى ترفع راية الدين سوف تساعده فى معركته ضد أعدائه من الناصريين واليساريين وسوف تحتفظ بولائها له، وتعترف له بالجميل.

المتطرفون الذين يحملون راية الدين، ويصدرون الأحكام والفتاوى بالتكفير وإهدار دماء المخالفين لهم، وجدوا فى قضية «سلمان رشدى» وروايته «أيات شيطانية» فرصة لإثارة عاصفة من الغضب على نجيب محفوظ، خاصة بعد أن أصدر الإمام الخمينى قائد الثورة الإيرانية فى ١٤ فبراير سنة ١٩٨٩، فتوى بإهدار دم «سلمان رشدى» والذين نشروا روايته، وذلك باعتبار «سلمان رشدى» مرتدا عن الإسلام، وأن إهدار دمه وقتله هما العقاب الوحيد الذى يستحقه مؤلف «آيات شيطانية»، وقد تبعت فتوى الإمام الخمينى تصريحات من مسئولين إيرانيين تقول إن الحكومة الإيرانية قد رصدت مبلغ أربعة ملايين دولار لاغتيال «سلمان رشدى»، وأكدت التصريحات الإيرانية الرسمية أن هذا الكاتب المرتد عن الإسلام، لن يفلت من القتل ولو اختبأ فى آخر الدنيا.

كيف كان موقف نجيب محفوظ الفائز بجائزة نوبل من فتوى الإمام الخمينى؟ إن نجيب محفوظ كان يشعر بأن عليه واجبا يتحمله ومسؤولية لم يعد بالإمكان التخلى عنها، فقد أصبح العالم كله ينصت إليه، وينتظر منه موقفا واضحا فى أمور الفكر والثقافة، بل فى القضايا الإنسانية جميعها، وهذا هو ما تعوده الرأى العام العالمى فى كل مكان بالنسبة للفائزين بجائزة نوبل، فكل من يفوز بهذه الجائزة يصبح متحدثا باسم الإنسانية، ومعبرا عن قضاياها الأساسية.

ومن هنا لابد أن يكون لنجيب محفوظ موقف من رواية «آيات شيطانية»، وموقف من فتوى الإمام الخومينى بإهدار دم مؤلف الرواية، ورصد الحكومة الإيرانية لأربعة ملايين دولار لتنفيذ العقاب بالقتل على «سلمان رشدى» ولم يتردد نجيب محفوظ فى إعلان رأيه، فبعد أربعة أيام من صدور فتوى الإمام الخومينى، نشرت جريدة «أخبار اليوم» المصرية فى صفحتها الأولى خبرا تحت عنوان «نجيب محفوظ: الفكر لا يحارب إلا بالفكر»، وفى هذا الخبر تقول الجريدة: «دان الكاتب الكبير نجيب محفوظ قرار الإمام الخمينى بإهدار دم الكاتب الهندى سلمان رشدى بسبب تأليفه كتاب «آيات

شيطانية»، وقال نجيب محفوظ: إن محاربة الفكر لا تكون إلا بالفكر، وقد تم تأليف المئات من الكتب ضد الإسلام وقويت شوكته، وذلك لأنه لا يمكن لأى كتاب مهما كان شأنه أن يهز عقيدة أو دينا» ، وفي اليوم نفسه الذى ظهرت فيه تصريحات نجيب محفوظ بجريدة «أخبار اليوم»، نشرت جريدة «الأهرام» تصريحا آخر أكثر عنفا لنجيب محفوظ يقول فيه: «إنه من الواجب عقاب «الإمام الخومينى» على قراره بقتل «سلمان رشدى»، وكان نجيب محفوظ قد أدلى فى الوقت نفسه بتصريح لوكالة «رويترز» البريطانية، قال فيه: «إن القتل جريمة، والتحريض عليه جريمة»، وأضاف نجيب فى تصريحه «إنه لم يقرأ رواية «آيات شيطانية» حتى الآن، ولكنه يعرف أن الأزهر رفضها واعترض عليها، ويرى أن الطريق الأفضل هو تحليل الرواية والرد المنطقى على ما تحتويه».

وهنا حدثت ظاهرة غريبة عجيبة، فقد تحولت عيون المتطرفين الذين يحملون راية الدين إلى نجيب محفوظ، واعتبروه متهما مثل «سلمان رشدى»، بل وقبل «سلمان رشدى». وكما جاء فى كتاب «نجيب محفوظ – صفحات من

مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته» وهو حوارات أجراها كاتب هذه السطور مع نجيب محفوظ، وصدرت طبعته الأولى سنة ١٩٩٨، «صفحة ٣٤٨» فإن نجيب محفوظ لم يسلم من المتطرفين الذين كانوا يتعاملون مع الآخرين على أساس مبدأ واحد، وهو أنك إذا لم تكن معهم ولم تطعهم طاعة عمياء فأنت ضدهم وعدوهم - كما يتصورون - وقد تفاعلت الأحداث بعد ذلك بصورة سريعة لم تخطر على بال أحد، ففي يوم الأربعاء ٢٣ فبراير ١٩٨٩، صدرت صحيفة «النور» الإسلامية ، وقد شغلت هذه القضية أكثر من نصف العدد المكون من عشر صفحات من القطع الكبير للصحف، وقد يبدو هذا أمرا طبيعيا ومفهوما بالنسبة لجريدة تصف نفسها بأنها جريدة إسلامية، ولكن الغريب حقا هو أن هذه الجريدة قد ربطت بين «سلمان رشدى» و«نجيب محفوظ» وعدتهما وجهين لعملة واحدة، بل عدت الجريدة أن «سلمان رشدى هو من تلاميذ رواية نجيب محفوظ «أولاد حارتنا» الذين باعوا أنفسهم للشيطان على حد تعبير الجريدة، ونشرت الجريدة مقالا طويلا استغرق الصفحة الأخيرة بأكملها، مع بقية للمقال فى صفحة داخلية، وكان هذا المقال

بتوقيع كاتب اسمه «مصطفى عدنان» وهو الاسم الذى تبين أنه اسم مستعار للكاتب الصحافى «رائد العطار»، وهذا ليس مجرد اجتهاد قابل للخطأ، بل هو حقيقة ثابتة يمكن البرهنة عليها بسهولة وذلك عن طريق المقارنة بين كتابات «مصطفى عدنان» وكتابات «رائد العطار»، رحمه الله فهى كتابات واحدة ذات أسلوب خاص متميز مشترك بينهما جميعا. على أن «رائد العطار» نفسه لم يكن ينفى أنه صاحب المقالات باسم «مصطفى عدنان» وكان يقول لكل من يسأله: نعم.. إن مصطفى هو أنا.. رائد العطار، وكان الكاتب يفخر بنفسه وبحملته على نجيب محفوظ.

فى مقال مصطفى عدنان، أو رائد العطار، يقول الكاتب ساخرا ومحرضا: «إننى لن أغضب بعد أن نزل نجيب محفوظ منذ أيام ليناضل مع توأم «أولاد حارته» مؤلف «آيات شيطانية»، فقد عذرته فى دفاعه عن سلمان رشدى، لأن هذا- أى سلمان رشدى- إنما يطرح دم نجيب محفوظ للإهدار» ومعنى هذا الكلام أن نجيب محفوظ يدافع عن نفسه فى دفاعه عن سلمان رشدى».

وهكذا عد الكاتب أن مناداة نجيب محفوظ بمواجهة الفكر

بالفكر، هى دفـاع عن سلمـان رشدى [illegible] صريح ومتعمد، لرأى نجيب محفوظ، لأن رأى نجيب محفوظ ليس فيه أى تأييـد لسلمـان رشـدى، بل هو دعوة إلى الحوار بين الأفكار، والابتعاد عن العنف واستخدام السلاح. فلن تتغير الأفكار بالمسدسات والقنابل، وإنما تتغير الأفكار بمعارضتها عن طريق أفكار أفـضل منهـا، والكشف عن عـيـوب الأفكار الخاطئة بالحجة والبرهان.

ولم يتـوقف الأمـر عند حـد الحـملة التى شنتها جريدة «النور» على نجيب محفوظ، بل تلقف زعماء التطرف الإشارة وكـانـوا فى عـز قـوتهم فى تلك الأيام، سنة ١٩٨٨ و ١٩٨٩، وبدأت منابر المسـاجـد التى كـانوا يسيطرون عليـهـا تبث سمومـها، وكان من أكثر المهاجمين لنجيب محفوظ فى خطبة الجمعة كل أسبوع الشيخ عبد الحميد كشك، الخطيب الشعبى المشهـور فى أحد مسـاجـد القاهرة، وقد جمع الشيخ كشك هجومه على نجيب محفوظ، فى كتاب عنوانه «كلمتى فى الرد على نجيب مـحـفوظ»، وفى هذا الكتـاب اتهـام صـريح بتكفير نجيب مـحفـوظ فى روايتـه «أولاد حارتنا»، التى تتضـمن فى رأى الشيخ كشك إسـاءة إلى الله وأنبيـاء الله عليـهم السـلام،

والكافر المرتد لا يستحق إلا تطبيق الحد أى الإعدام وقطع الرقبة.

أما الشيخ عبد الرحمن مؤسس الجماعة الإسلامية، وزعيمها فى مصر، والتى تحمل أحيانا اسم «الجهاد» فقد كان يشن حملات متواصلة على نجيب محفوظ فى خطبته التى كان يلقيها كل يوم جمعة فى أحد مساجد «الفيوم» حيث كان الشيخ يقيم فى ذلك الوقت ، وكان هجوم الشيخ عمر عبد الرحمن لا يخرج عن اتهام نجيب محفوظ بأنه مرتد عن الإسلام ، وكان الشيخ عمر قد أدلى بحديث لجريدة الأنباء الكويتية فى أبريل سنة ١٩٨٩، جاء فيه: أنه من ناحية الحكم الإسلامى ، فإن سلمان رشدى ومثله نجيب محفوظ مرتدان، وكل من يتكلم عن الإسلام بسوء فهو مرتد، والحكم الشرعى أن يستتاب المرتد ، فإن لم يتب فلابد من قتله، ولو أن هذا الحكم قد تم تنفيذه فى نجيب محفوظ عندما كتب «أولاد حارتنا» لتأدب سلمان رشدى ولم يكتب «آياته الشيطانية».

وهكذا كانت هذه الفتاوى تعمل فى تعبئة الأجواء ضد نجيب محفوظ حتى جرت محاولة اغتياله فى ١٤ أكتوبر

سنة ١٩٩٤، فى الساعة الخامسة مساء أمام منزله فى العمارة رقم ١٧٢ «شارع النيل» بحى «العجوزة» فى القاهرة.

والحقيقة التى ينبغى تسجيلها للتاريخ هى أن نجيب محفوظ نفسه قد وقف من التحريض على قتله واتهامه بالارتداد عن الإسلام، موقفا حكيما مليئا بالصبر وسعة الصدر والثقة – من جانبه – بأن الأمر لا يمكن أن يتطور أبدا إلى حد الاعتداء عليه ومحاولة قتله، ولذلك فقد رفض فى أدب شديد، ولكن فى إصرار، ما عرضته عليه أجهزة الأمن من تعيين حراسة له على مدى أربع وعشرين ساعة، وذلك لحمايته من المتطرفين إذا فكروا فى إيذائه، وقد رفض نجيب الحراسة حرصا على حريته فى الحركة، ورفضا لإرهاق رجال الأمن بمتابعته، وهو الذى يحب المشى، ويمشى بالفعل كل يوم بضعة كيلو مترات، ولا بد أن يشعر الحراس بالتعب الشديد إذا أصبحوا مرافقين لرجل هو من كبار «المشاء فى الأرض». مثل نجيب محفوظ ، على أن السبب الأكبر الذى دفع نجيب محفوظ إلى رفض الحراسة هو فى تقديرى ما كان يشعر به من أمان نفسى وفكرى، فقد كان يتصور أن الأمور

لا تعدو أن تكون موقفا مبنيا على تفسير خاطئ لرواية «أولاد حارتنا»، وأن هذا التفسير خاطئ ويمكن مواجهته ومجادلته «بالتي هي أحسن» ، ولم يتصور نجيب محفوظ أن الأمور يمكن أن تصل إلى محاولة اغتياله أبدا، فهو في أعماقه مؤمن ببراءته، ولذلك فلا حاجة إلى حراسته، وما يدل على سعة صدر نجيب محفوظ وإحساسه بأنه ليس معرضا للأذى الجدي من جانب أحد، أنه قرأ فتوى الشيخ عمر عبد الرحمن ضده قراءة مختلفة عن قراءتنا جميعا لهذه الفتوى الشريرة، ففي الوقت الذي كنا جميعا نرى أن فتوى الشيخ عمر هي إهدار صريح لدم نجيب محفوظ، أي دعوة إلى قتله بتهمة الردة عن الإسلام، فإن نجيب محفوظ قرأ هذه الفتوى بطريقة أخرى، وذلك عندما علق على فتوى عمر عبد الرحمن في حديث صحفي له مع الزميلة «سوسن الدويك» ، نشرته بمجلة «الإذاعة والتليفزيون» قائلاً: «نفس فتوى الشيخ عمر عبد الرحمن ليست فتوى قاطعة، فهذه الفتوى تقول إن المرتد لابد أن يستتاب ، فإن لم يتب يقتل» ، وهكذا يعد نجيب محفوظ أن فتوى الشيخ عمر عبد الرحمن ليست نهائية، لأنها تفتح طريقا للتوبة قبل تنفيذ القتل، وهكذا بلغ تسامح نجيب

محفوظ وسعة عقله وصدره حداً رأى فيه أن فتوى عمر عبد الرحمن ليست دعوة صريحة للقتل، بل هي دعوة للمحاكمة إذا ثبتت تهمة الردة، مع فتح باب التوبة والتراجع أمام المرتد.

والحق أن تفسير نجيب محفوظ كان متساهلا ومتسامحا مع فتوى ليست متساهلة وليس فيها أى قدر من التسامح وفيها دعوة إلى قتل نجيب محفوظ، وما جاء غير ذلك فى الفتوى هو كلام ثانوى لا يخفف من حقيقة الفتوى الإرهابية، ولكن نجيب محفوظ كان يشعر بالأمان النفسى والفكرى وكانت ثقته بمجتمع مصر كبيرة، ولعله كان يتصور أن العنف إذا كان يظهر فى ساحة السياسة، فمن الصعب أن يظهر فى ساحة الأفكار والآداب والفنون، وقد ظل يعيش فى ظل هذه الطمأنينة حتى كاد يفقد حياته فى محاولة اغتياله سنة ١٩٩٤، وبعدها اضطر إلى أن يتخلى عن طمأنينته، ويقبل أن يقوم الأمن بحراسته، ويظل فى حماية هذه الحراسة التى كانت تحميه فى بيته، وتصاحبه فى كل حركة من حركاته حتى وفاته فى ٣٠ أغسطس ٢٠٠٦ .

على أن نجيب محفوظ كان له موقف واضح منذ ظهور

الاعتراضات على رواية «أولاد حارتنا»، وكانت هذه الاعتراضات هادئة فى البداية ، ثم أخذت ترتفع حتى أصبحت عاصفة كبيرة بعد الحصول على جائزة نوبل سنة ١٩٨٨، وكأن الحاسدين والحاقدين والمتطرفين الكارهين قد أفزعهم وأغضبهم أن يحصل نجيب محفوظ على هذا الاعتراف العالمى بعبقريته ، فأصابهم ما يصيب المعقدين فى الأرض من الفزع والاضطراب عندما يرون أن هناك نوعا من التفوق الاستثنائى قد تحقق لشخص من الأشخاص، بينما هم قابعون فى الظلام يتحسرون على ما ناله الآخرون من نجاح وما يعيشون هم فيه من خمول وسوء حال.

ماذا كان موقف نجيب محفوظ؟ إنه فنان مخلص أشد الإخلاص لعمله الأدبى والفنى، زاهد كل الزهد فيما عدا ذلك من مكاسب الدنيا، ولذلك فإنه التزم دائما بما تمليه عليه طبيعته من البعد عن الصراعات والصدمات والمنافسات، لأنه يضع طاقته كلها فى عمله الأدبى، ويرضى أن يعيش بعد ذلك حياة الموظفين المتوسطين الذين يقبلون بما أتيح لهم من حياة عادية، ولكنها كريمة ومستورة وخالية تماما من أى مظهر من مظاهر الترف.

لذلك كله فإن نجيب محفوظ منذ البداية التى أثيرت فيها الآراء المختلفة حول «أولاد حارتنا»، وبينها تحفظات على الرواية من الأزهر، فإنه قد أعلن أنه لن يوافق على نشر الرواية إلا بموافقة مسبقة من الأزهر.

فماذا يفعل نجيب أكثر من هذا الموقف الذى أصر عليه حتى وفاته؟ إنه موقف قد أخذه عليه بعضهم، وهو نقد فى غير موضعه، فطبيعة نجيب الشخصية ليست طبيعة مقاتل يحمل السلاح ضد أعدائه المختلفين، فهو فى الحياة رجل مسالم يريد أن يتجنب الصدام، أما الصراعات والمعارك وطرح الأفكار الجديدة فى شجاعة، ومحاربة ما هو مخطئ وضار، فإن نجيب محفوظ يفعل ذلك على خير وجه فى كتاباته المليئة بالحركة والحيوية والدعوة إلى تجديد الحياة والمجتمع والكشف عن السلبيات، والتأكيد على مبادئ التقدم والسير إلى الأمام.

لقد تمسك نجيب محفوظ بضرورة موافقة الأزهر على نشر رواية «أولاد حارتنا»، ووضع الأزهر بذلك أمام مسؤوليته فى الدفاع عن الحق وحرية الفكر وعن رفض الأخذ بالشبهات فى أعمال الأدب والفن، ولا لوم على نجيب محفوظ

فى ذلك، ولكن اللوم يقع على الأزهر الذى لم يتجاوب مع دعوة نجيب محفوظ منذ أكثر من أربعين سنة إلى الآن، وقد كان واجب الأزهر أن يستجيب لدعوة نجيب محفوظ، فيقرر رأياً فى رواية «أولاد حارتنا» وإذا صح أن الأزهر يرفضها ويدينها فليكن، وليس هناك مبرر لتردد الأزهر فى إعلان رأيه حتى لو كان سلبيا، بشرط أن يكون هذا الرأى مصحوبا بمبررات وتفسيرات دقيقة وواضحة، ولو حدث ذلك لاستطاع الأزهر أن يجعل من مثل هذه القضية الحساسة موضوعا محترما للمناقشات الإيجابية، فلا شك أن المدافعين عن الرواية والمقتنعين ببراءتها من اتهامات التكفير والارتداد عن الإسلام والإساءة إلى الدين، وأنا واحد من هؤلاء، كان بإمكانهم أن يضعوا أمامهم وجهة نظر الأزهر ويدرسوها ويدخلوا معها فى حوار نافع ومفيد.

ولكن الأزهر آثر الصمت مدة تزيد على نصف قرن ، وهذا الصمت ليس خيرا على الإطلاق، فلو تكلم الأزهر حتى لو كان كلامه فى غير صف الرواية، لجاء كلامه ، كما نظن نموذجا للحوار الفكرى السليم الخالى من التكفير والتحريض على القتل، ولعل ذلك كان يردع هؤلاء المتهورين المندفعين

المتطرفين من أمثال الشيخ عبد الحميد كشك ، والشيخ عمر عبد الرحمن، ولكن الأزهر وقف موقف المتفرج وسحب يده من المعركة ، فلا هو أيد الرواية ولا هو عارضها ، والذين قالوا إن الأزهر ضد الرواية اعتمدوا على شائعات وكلمات سمعوها باللسان من بعض علماء الأزهر، ولكن لا توجد ورقة واحدة صادرة عن الأزهر تتحدث عن الرواية وتحدد موقفا سلبيا أو إيجابيا منها وتدعو إلى مصادرتها كما يقال.

لقد كتب نجيب محفوظ روايته، وقال في تفسيرها إنه لم يقصد بها أبدا أن يسئ إلى الدين أو إلى الذات الإلهية أو إلى أنبياء الله، وطلب نجيب من الأزهر أن يحكم له أو عليه، ولكن الأزهر اتخذ موقف الصمت، وهو موقف أقل من مقامه، خاصة أن الرواية تحولت إلى فتنة كادت دماء نجيب محفوظ تسيل فيها، وهى دماء لها حرمتها مثل أى دماء أخرى، ومنع الفتنة واجب على كل قادر على ذلك، والأزهر ورجال الأزهر هم فى مقدمة القادرين.

قد يقال كيف يطلب نجيب محفوظ موافقة الأزهر حتى يعطى هو نفسه موافقته على نشر الرواية ، بينما الرواية قد

تم نشرها عشرات المرات ، وأصبحت فى أيدى جميع الذين يريدون قراءتها ممن يحبون نجيب محفوظ، أو ممن يكرهونه، أو ممن يندفعون إلى قراءة الرواية من باب الفضول بعدما أثير حولها من آراء متناقضة أشد التناقض؟!

الحق أن نجيب محفوظ لم يكن مسئولا عن نشر الرواية، ولا أظن أنه سمح بصورة رسمية صريحة بنشرها، وظل يعلن عدم مسؤوليته الأدبية والشخصية عن نشر الرواية عشرات المرات خارج مصر، دون إذن منه، فالرواية المنشورة لا تدخل فى نطاق مسؤوليته، وهو متمسك بالشرط الأساسى لموافقته على نشر الرواية، وهو شرط موافقة الأزهر على النشر، وابنتاه «فاطمة» و«أم كلثوم»، متمسكتان بالشرط نفسه بعد وفاة أبيهما وانتقاله إلى رحاب الله.

هنا يمكننا أن نتساءل: هل يمكن أن يكون هناك رأى ضد الرواية من دون أن يرتبط هذا الرأى الرافض بإهدار دم المؤلف والتحريض على قتله؟ وفى الإجابة عن هذا السؤال أقول: نعم هناك رجال دين اعترضوا على الرواية، ولكنهم لم يقولوا أبدا بتكفير صاحبها أو إهدار دمه، وكانت وجهة

نظرهم هى مجرد آراء طرحوها فى هدوء وموضوعية، وهى آراء قابلة للرد عليها والدخول فى حوار معها يخلو تماما من العنف والتجريح.

هل هناك أمثلة على ذلك؟

أمامى مقالان، الأول رأى لعالم إسلامى جليل هو الشيخ «محمد الغزالى» الذى قال فى حوار مع الأديب الروائى الكبير يوسف القعيد: «نعم أنا ضد «أولاد حارتنا» لأنى أرى أنها رواية تؤرخ للبشرية وللأنبياء الذين أرسلوا إلى البشر كافة»، هذا هو رأى الشيخ الغزالى فى الرواية، ولكن هذا الرأى لم يرتبط بالتكفير أو إهدار الدم أو الدعوة إلى قتل نجيب محفوظ.

إنه رأى يمكن مناقشته والرد عليه، لأنه لا يخرج عن حدود «الموضوع» إلى حدود المحاكمات، وإصدار الأحكام على الناس فى غيابهم ومن دون الاستماع إلى دفاعهم، ثم العمل على تنفيذ هذه الأحكام الدموية بيد الذين أصدروها من دون أن يكون لهم أى حق لا فى إصدار الأحكام ولا فى تنفيذها، فهم ليسوا مؤهلين لأن يكونوا قضاة، كما أن المجتمع لم ينتدبهم لتنفيذ الأحكام، وما يقومون به هو فوضى

لا يقبلها شرع أو قانون ولا يرتضيها عقل أو ضمير.

ما قاله الشيخ الغزالى هو رأى لم ينحرف صاحبه إلى التجريح والتكفير، وقد قال هذا العالم الدينى الكبير إنه ضد الرواية، ومن حقه أن يقول ذلك، وعندما قيل للشيخ الغزالى إن الشيخ كشك والشيخ عمر عبد الرحمن أهدرا دم نجيب محفوظ، قال: «إن الشيخ كشك جاهل أما عمر عبد الرحمن فإنسان مريض وهذا معناه أن الشيخ الغزالى كان يرفض تماما تكفير نجيب محفوظ ويرفض الاعتداء عليه، وقد قام الشيخ الغزالى بزيارة نجيب محفوظ فى أثناء علاجه بالمستشفى بعد محاولة اغتياله فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٩٤، وقد قرأت وصفا جميلا ومؤثرا لهذه الزيارة كتبه الأديب الفنان يوسف القعيد فى مجلة «المصور» بعد أيام قليلة من محاولة الاغتيال.

لا بد بعد ذلك من الإشارة إلى أن هناك أقوالا حول أن الشيخ الغزالى هو الذى كتب المذكرة الأساسية التى أدت إلى أن يقف الأزهر ضد نشر رواية «أولاد حارتنا» .. ولكن أين مذكرة الغزالى هذه؟ إن الأزهر لم ينشرها، ولم ينشرها الشيخ الغزالى نفسه ولم يتحدث عنها ، وقد حاولت وحاول

غيرى كثيرون أن نحصل على صورة من هذه المذكرة فلم نجد لها أثراً، وعلى هذا الأساس فإنه لا يمكن مناقشة مذكرة لا تخرج عن كونها مجرد شائعة حتى الآن، أما ما ظهر من رأى الشيخ الغزالى فهو مجرد رفض للرواية حسب نص كلامه الذى جاء فى حديثه مع يوسف القعيد، ومجرد الرفض لا يمكن أن يكون رأيا له مقدماته وأسبابه، أو يكون هذا الرأى قابلا للمناقشة والرد عليه، ولكن قيمة هذا الرأى أو هذا الموقف من جانب الغزالى هو - كما أشرنا من قبل - أنه يخلو من التكفير وإهدار الدم.

على أن هناك استنادا من أساتذة الشريعة بكلية دار العلوم هو للدكتور «صلاح سلطان» الذى كتب دراسة عن «أولاد حارتنا» من وجهة نظر نقدية دينية، ولكن هذا العالم المعترض على الرواية قال فى مقدمة نقده كلاما يستحق الإعجاب والتقدير، حيث جاء فيه: «يهمنى أن أشير بوضوح إلى أننى أنظر إلى الرواية مجردة عن صاحبها، ولا يعنى ما أقول فيها أننى أحكم على صاحبها بأى حكم، لأن هذا ليس لى، ولا يحق لى أن أحكم على خلق الله عز وجل، فما أدرى، ما يحدث لى بين يدى الله تعالى، ومن قال لأخيه يا كافر فقد

باء بها أحدهما، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم، ولهذا الأمر أهله من القضاة، وله ضوابطه من المراجعة والاستتابة وغيرها مما لا يملكها الأفراد أو الجماعات، ولا يحق أن ينوب أحد عن الدولة فى هذا، فكل إنسان مسؤول عما هو مكلف به من دون غيره».

هذا كله يمثل مبادئ صحيحة وكريمة فى أى جدل فكرى، وبعد ذلك لا بأس فى أن يكون للإنسان رأى يراه، ويرى الآخرون سواه، وأستاذ الشريعة صلاح سلطان يرى أن الرواية تقوم على أساس أن «الجبلاوى» فى الرواية هو الله سبحانه، ويقدم على ذلك أدلة كثيرة نكتفى منها بذليل واحد يقول فيه:

لا يخالج القارئ للرواية مع أحداثها المتعاقبة الشك فى أن المقصود بشخصية الجبلاوى فى الرواية هو الله، تعالى عما يقولون علوا كبيرا، ومن الأدلة على ذلك ما يلى: تقول الرواية فى صفحة ٥ أيضا: «اعتزل الجبلاوى فى بيته لكبره منذ عهد بعيد، فلم يره أحد منذ اعتزاله، وقصة اعتزاله مما يحير العقول، ولعل الخيال أو الاعتراض قد اشتركت فى إنشائها»، وتقول الرواية صفحة ٦: «أليس من المحزن أن

يكون لنا جد «أى خالق» كهذا من دون أن نراه؟ أليس من الغريب أن يختفي هو في البيت الكبير «أى السماء» وأن نعيش نحن في التراب؟

هذه هي الطريقة التي يقرأ بها أستاذ الشريعة الفاضل صلاح سلطان - رواية «أولاد حارتنا»، وأبسط ما يمكننا أن نقوله عن هذه القراءة إنها غير أدبية، وإنها تحاول استنطاق بعض كلمات الرواية وسطورها بما ليس فيها، فالأدب يعتمد في جانب كبير منه على عنصر الخيال، وتجريد الأدب من عنصر الخيال وتحويل هذا الخيال إلى ترجمة واقعية خالصة، تجعل من العمل الروائي مجرد تقرير أو بحث أو دراسة علمية أو تحقيق صحفي.

عندما يقول نجيب محفوظ في «أولاد حارتنا» كان لنا جد، فيسارع أستاذ الشريعة إلى القول بأن «الجد» هنا هو «الخالق»، والجد لا يخلق أولاده أو أحفاده، بل هم يولدون له، وتفسير الجد بأنه «الخالق» لا يستقيم في اللغة، ولا يستقيم في أى رمز من رموز الأدب والفن.

وعندما يقول نجيب محفوظ إن «الجد» اختفى في البيت الكبير، يسارع أستاذ الشريعة إلى تفسير «البيت الكبير» بأنه

«السماء»؟! ففى أى لغة يمكن قبول القول بأن «البيت الكبير» هو «السماء» أو فى أى رمز من رموز الأدب نستطيع أن نقول عندما نقرأ كلمة «البيت الكبير» إن هذه الكلمة تعنى «السماء»؟!

ذلك أمر لا تقره لغة، ولا يقره نقد أدبي، ولكنه نوع من فرض أفكار لا وجود لها في النص الأدبى على ذلك النص المسكين.

وعلى هذا الأساس، فقد عد أستاذ الشريعة أن «الجبلاوى» فى رواية «أولاد حارتنا» هو الله، وكل أدلته من هذا النوع الذى لا ترتضيه اللغة، ولا يرتضيه التفسير الأدبى القائم على قواعد صحيحة.

على أن رجال الدين الذين وقفوا ضد «أولاد حارتنا» وفسروها تفسيرا دينيا خالصا، لم يكونوا هم كل رجال الدين، أى أنه ليس هناك إجماع بين علماء الدين على اتهم الرواية بأنها ضد الذات الإلهية والأنبياء، سواء من انتهى بهذا الاتهام إلى التكفير وإهدار الدم، أو من التزم الحدود الأخلاقية فأعلن مجرد الاعتراض على الرواية من دون تجريح صاحبها أو تكفيره.

ليس كل رجال الدين معارضين أو معترضين، فهناك من رجال الدين الكبار الموثوق بهم وبآرائهم من يقفون فى صف الرواية، ويدافعون عنها، وأنت هنا أمام نماذج من كتابات بعض المفكرين الدينيين الكبار المعروفين فى العالم الإسلامى كله.

المفكر الأول هو الدكتور «محمد سليم العوا»، وهو من أعظم علماء الإسلام فى العصر الحديث، عقلا وضميرا وشجاعة، ولا يمكن لأحد أن يظن به الظنون... هذا العالم الجليل كتب بعد ، اغتيال نجيب محفوظ مقالا قصيرا نشرته مجلة «الهلال» فى عددها الصادر فى أول نوفمبر سنة ١٩٩٤ . أى بعد محاولة الاغتيال بنحو أسبوعين، ولأننى أعتقد أن هذا المقال كتبه عالم إسلامى جليل مثل الدكتور العوا- على إيجازه - له أهميته وقيمته ما يجعل منه وثيقة مهمة تدل المسلم على طريق الصواب بعيدا عن أى تضليل أو ضلال.. ولأننى أعد مقال الدكتور العوا له هذه الأهمية، فإننى أنقله بالكامل هنا، حيث يقول ذلك العالم الجليل:

أثار حادث الاعتداء الآثم على الكاتب نجيب محفوظ مشاعر الغضب والاشمئزاز فى نفسى ، لأننى أعتبره من

أسوا الحوادث الإجرامية التى تهدد حرية الفكر، فإن اختلافاً فى الرأى والفكر مهما بلغت درجته لا يجيز لأى إنسان كان أن يعتدى علىٰ حياة إنسان آخر، فهذا مبدأ لا يقره دين ولا شرع أو عرف أو قيم، إن الإسلام حرم الدماء تحريما تاما، لا يختلف فى ذلك مسلم أو غير مسلم مهما كان الخلاف فى العقيدة السياسية ، أو الرأى أو الدين. وقد أكد الإسلام هذا التحريم فى عدة مواضع من القرآن والسنة، كان آخرها فى خطبة الوداع للرسول صلى الله عليه وسلم، للناس كافة دماءهم وأموالهم عليهم حرام كحرمة يوم عرفة من شهر ذى الحجة فى مكة المكرمة، وهذا أقصى درجات التحريم وأقساها، فمن أباح لنفسه الخروج عن حدود هذا التحريم، فإنه يخرج عن طاعة الله ورسوله، فما بالك إذا كان الاعتداء على كاتب كبير فى حجم نجيب محفوظ وما يتمتع به من قلب كبير يسع الإنسانية جمعاء، فنجيب محفوظ قيمة إنسانية عالمية نباهى به الأمم كمصريين وعرب.

وبهذه المناسبة تحضرنى واقعتان تعكسان شخصية الكاتب الكبير وقيمته فى نفوس العامة:

الواقعة الأولى، جاءنى صديق لأصطحبه لشراء الشقة المقابلة لشقة نجيب محفوظ بحى «سان ستيفانو» بالإسكندرية، وذهبنا إلى صاحب المنزل الذى كان يتمتع بخفة الظل، وكان متوسط الثقافة، وفوجئنا به يطلب مقدما كبيرا لا يتناسب مع حجم الشقة، ودهشنا وسألناه عن السبب، فأجاب: «إنه ليس ثمنها الحقيقى، ولكن.. ألا يكفى أنك ستجاور الأديب نجيب محفوظ».

وقبل هذه الواقعة بسنوات ، حينما كنت طالبا، كنت أذهب مع أصدقائى لنتجول حول كازينو «بترو» بكورنيش حى «لوران» بالإسكندرية ، ونظل من الساعة التاسعة حتى الثانية عشرة ظهرا، لكى نشهد ندوة «بترو» التى يؤمها الكاتبان الكبيران «توفيق الحكيم ونجيب محفوظ» وحولهما عدد من نجوم الأدب والفكر والسياسة، وكنا نذهب لأصدقائنا فى المساء لنفاخر برؤية هذين العلمين الشامخين».

ثم يقول العالم الإسلامى الكبير الدكتور محمد سليم العوا فى الجزء الأخير من مقاله «أردت أن أذكر هاتين الواقعتين للدلالة على مكانة الكاتب الكبير فى نفوس الناس البسطاء

قبل المثقفين، وذلك كان الاستنكار شاملا لكل أبناء الشعب لهذا الحادث الإجرامى من هؤلاء الأغرار ضد هذه القيمة الفكرية العالية».

أما الرواية التى أثارت جدلا، وكانت حجة هؤلاء الأغرار لإقدامهم على محاولة اغتيال الكاتب الكبير، وهى «أولاد حارتنا» فهى رواية خالدة تعالج القيم الإنسانية بصورة رمزية رائعة، وقد صاغها الكاتب بأسلوبه الأدبى الرصين، ولم يمس فيها أى قيمة أخلاقية أو دينية أو أى شخصية دينية، فجاءت نصا أدبيا فريدا فى أسلوبه وصياغته، وهى نتاج خبرة عميقة بمسار الإنسانية وبالقيم الروحية الخالدة، ولهذا كله أطالب بالإفراج عن هذه الرواية الحبيسة منذ أكثر من ثلاثين عاما، وأدعو إلى إعادة نشرها كنص أدبى رائع، يجب أن ننظر إليها بهذا المنظور، وسنجدها تعالج هموم الإنسانية وطموحها نحو الأفضل والأبقى على مر التاريخ».

هذا هو رأى عالم من أكبر علماء الدين وأكثرهم عمقا واستنارة وهو الدكتور محمد سليم العوا، وهذا الرأى هو شهادة عظيمة الأهمية والقيمة عند كل من يريدون أن

يصـــلوا إلى الحـقـيـقـة من دون أن تكون رؤوســهم مليـئـة بأحكام سـابقـة ، أو أن تكون نفـوسـهم مليـئـة بسـوء النيـة والتربص الأدبى والفكرى ضد نجيب محفوظ، عقابا له على نجاحـه وحب الناس له وسمـعتـه العاليـة فى كل مكان من العالم.

وأخيرا- أنهى هذا الجزء من البحث عن الحقيقة حول «أولاد حارتنا» بما كتبه الأستاذ «محمد جلال كشك» فى كتيب صغيز مهم له عنوانه «أولاد حارتنا فيها قولان» حيث يقول فى صفحة ٤١: «إن المسلم الذى يتعرف إلى الله تعالى من ملامح شخصية الجبلاوى فى «أولاد حارتنا» هو الذى يستحق الاستتابة «أى دعوته إلى إعلان التوبة أمام المحكمة»، ويجب على من يخرج بهذا الاستنتاج أن يعيد تثقيف نفسه فى علم التوحيد، فإن مثل هذا المسلم هو مسلم ظن بالله الظنون..»

ومحمد جلال كشك صاحب هــذا الكلام القاطع فى نفى التشابه بين الجبلاوى، والله سبحانه وتعالى، هو كاتب إسلامى له إنتاج كبير واسع فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وله مكانته المعترف بها بين المفكرين الإسلاميين

المعاصرين.

ولا تزال «أولاد حارتنا» بحاجة إلى المزيد من البحث والدراسة، ولعلنا نعود إلى الحديث عن جوانب أخرى من قضية هذه الرواية التى هزت المجتمع العربى منذ نشرها على حلقات مسلسلة فى «الأهرام» ابتداء من سبتمبر ١٩٥٩ وحتى الآن.

نجيب محفوظ والمتطرفون

في سنة ١٩٩٤، أقامت جريدة «الأهرام» بالقاهرة ندوة واسعة، كان عنوانها «نحو مشروع حضارى أدبى» وقد كتب نجيب محفوظ إلى هذه الندوة رسالة قصيرة قال فيها:

إن أى مشروع حضارى عربى لابد أن يقوم على الإسلام، وعلى العلم.

وفى لقاء بين نجيب محفوظ والمفكر الإسلامى الكبير الدكتور أحمد كمال أبو المجد، طلب الدكتور أبو المجد من نجيب محفوظ أن يزيد رسالته إلى «ندوة الأهرام» شرحا وتفسيرا، ويقول الدكتور «أبو المجد».. فى حماسة شديدة، وصوت جهير ونبرة قاطعة، انطلق نجيب محفوظ يقول:

«وهل في تلك الرسالة جديد؟ إن أهل مصر الذين أدركناهم، وعشنا معهم، والذين تحدثت عنهم فى كتاباتى كانوا يعيشون بالإسلام، ويمارسون قيمه

العليا، دون ضجيج ولا كلام كثير، وكانت آصالتهم تعني هذا كله، ولقد كانت السماحة وصدق الكلمة وشجاعة الرأى وأمانة الموقف ودفء العلاقات بين الناس، هى تعبير أهل مصر الواضح عن إسلامهم، ولكنى فى كلمتى إلى الندوة أضفت ضرورة الأخذ بالعلم، لأن أى شعب لا يأخذ بالعلم ولا يدير أموره كلها على أساسه لا يمكن أن يكون له مستقبل بين الشعوب، إن كتاباتى كلها، القديم منها والجديد، تتمسك بهذين المحورين؛ الإسلام الذى هو منبع قيم الخير فى أمتنا، والعلم الذى هو أداة التقدم والنهضة فى حاضرنا ومستقبلنا».

ثم يواصل نجيب محفوظ حديثه إلى الدكتور أحمد كمال أبو المجد، فيقول:

إنه حتى «أولاد حارتنا» التى أساء البعض فهمها لم تخرج عن هذه الرؤية، ولقد كان المغزى الكبير الذى يقف وراء أحداثها هو، أن الناس حين تخلوا عن الدين ممثلا فى «الجبلاوى» وتصوروا أنهم يستطيعون بالعلم وحده ممثلا فى شخصية «عرفه»، أن يديروا حياتهم على أرضهم «التى هى

حارتنا» اكتشفوا أن العلم بغير الدين قد حُوِّل إلى أداة للشر، وأنه قد أسلمهم إلى استبداد الحاكم وسلبهم حريتهم، فعادوا من جديد يبحثون عن «الجبلاوى» .. ومشكلة «أولاد حارتنا» أننى كتبتها رواية، وقرأها بعض الناس «كتابا» و«الرواية» تركيب أدبى فيه الحقيقة وفيه الرمز، وفيه الواقع وفيه الخيال، ولا بأس بهذا أبدا، ولا يجوز أن تتم محاكمة «الرواية» إلى حقائق التاريخ التى يؤمن الكاتب بها، لأن كاتبها باختيار هذه الصيغة الأدبية لم يلزم نفسه بهذا أصلا وهو يعبر عن رأيه فى رواية، وفى ثقافتنا أمثلة كثيرة لهذا اللون من الكتابة، ويكفى أن نذكر منها كتاب «كليلة ودمنة» فهو مثلا يتحدث عن الحاكم ويطلق عليه وصف «الأسد» ولكنه بعد ذلك يدير كتابته كلها داخل إطار مملكة الغابة وأشخاصها المستمدة من دنيا الحيوان، منتهيا بالقارئ فى آخر المطاف إلى العبرة أو الحكمة التى يرجيها على ألسنة الطير والحيوان، وهذا هو الهدف الحقيقى الذى يتوجه إليه كل كاتب، صاحب رأى، أيا كانت الصيغة التى يمارس بها كتابته».

هذا هو رأى مباشر صريح لنجيب محفوظ فى حديث له مع مفكر إسلامى كبير هو الدكتور أحمد كمال أبو المجد، وقد كان المستبعد تماما أن يكون نجيب محفوظ بهذا الكلام يقوم

بتمثيله لأن «يخدع» الدكتور أبو المجد، وأن يكسبه إلى صفه ضد الذين يتهمون رواية «أولاد حارتنا» بالخروج على الإسلام والعدوان عليه، فلا شك أن نجيب محفوظ هو أذكى وأعمق بصيرة من أن يحاول خداع رجل له مكانة الدكتور أبو المجد ومعروف عنه أنه من كبار العلماء والمفكرين المعاصرين الدارسين للإسلام والعارفين بهذا الدين الحنيف، في جانب العقيدة منه، وجانب التشريع معا، ولو حاول نجيب محفوظ أن يقوم بعملية خداع وتمويه أمام الدكتور أبو المجد، لكان نجيب بذلك رجلا فى غاية السذاجة والسطحية، والتصور المثير للسخرية، إنه بالإمكان خداع الأذكياء والمثقفين الكبار بسهولة، ولم يكن نجيب محفوظ في يوم من الأيام، لا فى حياته ولا فى كتابته رجلا ساذجا، بل كان رجلا واعدا سريع الفهم، حسن الذوق، لديه دائما حسن تقدير للأشخاص والأحداث، إضافة إلى ذلك فقد كان نجيب محفوظ واحدا من أكثر الناس فى هذه الدنيا أمانة مع نفسه ومع الآخرين، ولم أعرف عنه ولم يعرف عنه غيرى أنه يضع على وجهه أقنعة يخفى بها حقيقة ما يفكر فيه ويشعر به، ولم يقل عليه أحد إنه كان يتحدث أو يكتب للاستهلاك، أو لإرضاء شخص أو مجموعة من الناس.. صحيح أن نجيب محفوظ لم يكن يحب

الصراعات أو الدخول فى خصومات عنيفة، ولكن ذلك لم يضعف شخصيته، ولم يدفعه يوما إلى أن يردد كلاما لا يؤمن به. ومن الضرورى القول إن نجيب محفوظ، وهو يتحدث إلى الدكتور أبو المجد، كان يعرف جيدا أن الدكتور أبو المجد ليس من الشخصيات التى يمكن الحصول على رضاها بكلام عابر ومجاملات فكرية سطحية.

من هنا نخرج من كلام نجيب محفوظ بأنه مؤمن بأن الإسلام، إضافة إلى العلم: هما السبيل إلى التقدم والنهوض، وأن هذا الإيمان بدور الإسلام فى حياة مصر والمصريين، الذين يعيشون بالإسلام ويمارسون قيمه العليا، دون ضجيج ولا كلام كثير، إلى آخر ما ورد فى كلام نجيب محفوظ، هذا الكلام ليس هناك مجال لعدم تصديقه، أو للشك فيه، أو للظن بأنه كلام مقصود به «الاستهلاك» أو «ذر الرماد فى العيون» كما يقال.

وقد استمع الدكتور أحمد كمال أبو المجد إلى كلام نجيب محفوظ وعلق عليه بقوله: الواقع أننى قرأت رواية أولاد حارتنا، منذ عدة سنوات وأذكر أننى تعاملت معها حينذاك على أنها «رواية» وليست كتابا، ولذلك تفهمت ما امتلأت به

من رموز تداخل فى صياغتها الخيال، ولم أتصور أبدا أن كاتبها كان بهذا التداخل يحاول رسم صور تعبر عن موقفه من الحقائق التى يتناولها ذلك الخيال أو تشير إليها تلك الرموز، ولكن الذى استقر فى خاطرى على أى حال وبقى فى ذاكرتى منها إلى يومنا هذا، والذى رأيته - معبرا عن موقف كاتبها الذى يريد إيصاله إلى قرائه - هو تتويج حلقات روايته الرمزية بإعلاء واضح عن حاجة «الحارة» التى ترمز للمجتمع الإنسانى - إلى الدين وقيمه التى عبر عنها الرمز المجرد «الجبلاوى»، حتى وإن تصور أهل الحارة غير ذلك وهم معجبون مفتونون «بعرفة» الذى يرمز إلى سلطان العلم المجرد والمنفصل عن القيم الهادية والمواجهة لأهل الحارة.

هذا رأى الدكتور أبو المجد الذى لا يستطيع أحد أن يجادل فى أنه أحد المفكرين الإسلاميين الكبار. وفى هذا الرأى الصادر عن رجل موثوق به فكريا وأخلاقيا ودينيا تبرئة لـ«أولاد حارتنا» من تلك التهمة غير العادلة وغير المتفقة مع القراءة الصحيحة للرواية وهى تهمة الكفر والخروج على الدين!

هناك قبل ذلك كله مبدأ عام أظن أن الإسلام يفرضه علينا، هذا المبدأ هو أنه إذا أعلن الإنسان إيمانه وتمسكه بدينه فليس من حق أحد أن يقول له إن إيمانك هو إيمان باللسان وليس إيمانا بالقلب، وأن نيتك هي الكفر وإن كنت تنطق- غير صادق- بأنك من أهل الإيمان».

هذا ليس في الإسلام، ولا من الإسلام، فما تخفيه النوايا وما تنطوى عليه القلوب من أسرار لا يحق لأحد أن يحكم عليه سوى الله سبحان وتعالى، وقد أعلن نجيب محفوظ كما جاء في كلامه السابق إيمانه بالإسلام، وأعلن ذلك دون إرغام له على أن يقول ما قال، بل وأضاف إلى ذلك إيمانه الشخصي بأن مجتمع مصر هو مجتمع يعيش على القيم الإسلامية ويستمد تماسكه من المبادئ الدينية، ثم أضاف إلى ذلك كله دعوته إلى الأخذ بالعلم حتى ينهض المجتمع ويتقدم الإنسان. أما بالنسبة لرواية «أولاد حارتنا» فقد نفى نجيب محفوظ تماما أن الرواية هي «كتاب فكرى» يتحدث عن الله والأنبياء، وأكد أنها عمل فني يقوم على الخيال وأنه يهدف إلى الدفاع عن فكرة عامة رئيسية هي **أن العلم لابد أن يساند الدين في النهوض بالحياة وتحقيق سعادة الإنسان**

وقد كان هذا كله كافيا لتبرئة نجيب محفوظ وروايته «أولاد حارتنا» من تهمة الكفر والخروج على الدين، ولكن هذه التبرئة لا يمكن أن تتم إلا فى مناخ فكرى حر متسامح، وليس فى مناخ متعصب يبتعد عن روح الدين وعن جوهره الحقيقى، ويعتمد على «الشبهات» ويأخذ الناس بالظن السيئ، على الرغم من أن القرآن الكريم يقول لنا «إن بعض الظن إثم».

وسوف أسمح لنفسى بالاستطراد قليلا هنا، لأشير إلى أن فكرة نجيب محفوظ عن أن الإسلام والعلم معا هما الجناحان اللذان يمكن للمجتمع أن يطير بهما فى آفاق التقدم والنهضة، هى فكرة قريبة مما دعا إليه أديب كبير ومفكر إسلامى عظيم هو «الشاعر محمد إقبال» (١٨٧٧-١٩٣٧) شاعر باكستان الذى أصبحت له شهرة عالمية، وكان من المؤسسين الأوائل لدولة باكستان، وكان يدعو مواطنيه المسلمين إلى النهوض والتقدم، وقد قال فى إحدى قصائده موجها حديثه إلى «المسلم» فى بلاده: «قم وحطم الأصنام والقيود وحطم السلاسل والأغلال.

إن الإسلام يدعوك كل لحظة إلى أن تحقق ذاتك. اعرف نفسك أيها الفلاح. أنت البذر والحق والمطر .. كن شعلة

تنساب وتحرق كل ما يتنافى وأحكام الله».

هذا الشاعر الكبير كانت له معادلة فلسفية يقول فيها: «الاشتراكية + العلم = الإسلام».

هذا ما كان يفكر فيه محمد إقبال، وهو بالطبع واحد من أعظم شعراء الإسلام في كل العصور، وبالطبع لم يفلت محمد إقبال من الاتهامات التي عدت معادلته خروجا على الدين وإلحاداً وكفرا بالله، ولابد أن يقوده ذلك كله، إلى الجحيم والعذاب الأليم، ولكن إقبال كان قد اكتسب بفضل مواهبه العظيمة مكانة عالمية، وكان المسلمون في كل مكان يعدونه زعيما من زعمائهم ورائدا من أكبر روادهم، ولذلك استعصى على أعدائه أن يلحقوا به أي نوع من الأذى، وعلى الرغم من نجيب محفوظ يشبه محمد إقبال في مكانته العالمية، وخاصة بعد أن نال جائزة نوبل سنة ١٩٨٨، وانفتحت أمام أعماله أبواب الترجمة إلى سائر لغات العالم المختلفة، كما أن نجيب محفوظ قد احتل بين جماهير المتعلمين والمثقفين في مصر والعالم العربي مكانة طيبة، على الرغم من ذلك كله فإن حظه لم يكن مثل حظ محمد إقبال، فقد نال المتعصبون المتطرفون من نجيب محفوظ حين حاولوا اغتياله، بينما لم يتعرض محمد إقبال لمثل هذه الجريمة، وإن كان لم يسلم من.

الهجوم العنيف عليه واتهامه فى إسلامه وعقيدته الدينية.

ولكن الحقيقة فى النهاية هى أن نجيب محفوظ ومحمد إقبال يشتركان فى معادلة حضارية متشابهة كبرى من أجل النهضة بالمسلمين، وهذه المعادلة عند إقبال هى كما سبقت الإشارة: «الاشتراكية + الإيمان = الإسلام».

وعندما ننظر نظرة موضوعية، دقيقة وأمينة، سوف نجد أن النية الأساسية عند إقبال وعند نجيب محفوظ معا ليست هى نية الكفر والخروج على الدين بأى حال من الأحوال، بل هى نية أخرى لدعوة المسلمين إلى النهوض والاستماع إلى صوت العصر والتنبه السريع إلى التقدم العلمى، وبذلك يمكن لهم أن يواجهوا مشكلات الحياة، وأن يخرجوا من التخلف الذى جعل المسلمين فى العصور الحديثة يقفون فى آخر قائمة الحضارة والتقدم، ويجدون أنفسهم فى معظمهم أكثر فقراء العالم فقرا، وأكثرهم قابلية للاستغلال والضغط عليهم والظلم لهم من القوى الكبرى فى العالم، سواء أكانت هذه القوى هى الاستعمار القديم أم الاستعمار الجديد!.

وما دام الاتهام الموجه إلى نجيب محفوظ من جانب المتطرفين بسبب رواية «أولاد حارتنا» هو الكفر بالله والخروج

على العقيدة الدينية، فإننى أعود هنا إلى أحد الأحاديث التى جرت بين نجيب محفوظ وبينى ، والتى نشرتها فى أثناء حياته فى كتاب عنوانه «نجيب محفوظ – أضواء جديدة على أدبه وحياته» وقد دار هذا الحديث حول ، «عقيدة نجيب محفوظ الدينية» وجاءت إجابات محفوظ على أسئلتى دليلا قويا على عمق إيمانه وصحة هذا الإيمان، وبالطبع فإن ما قاله نجيب لا يمكن تصديقه والثقة به إلا عند من ينظرون إلى نجيب محفوظ على أنه صادق وموثوق به، وهذه هى نظرتى إليه، أما الذين يرون فيه شخصا آخر مخادعا وقادرا على أن يقول كلاما لا يعنيه، فسوف يجدون ألف طريقة وطريقة للتشكيك فى نجيب محفوظ، وهذا التشكيك ليس له أى مبرر فيما عرفته من شخصية نجيب محفوظ وفيما قرأته من أعماله الأدبية، وقد قرأتها كلها بغير استثناء قراءة دراسة وبحث ، لا مجرد قراءة سريعة من باب المتعة والتسلية!

كان الحوار بين نجيب محفوظ وبينى يدور حول عقيدته الدينية، وجاء فى إجابته قوله: «لم أقرأ فى حياتى كتابا واحدا أكثر من مرة، باستثناء كتاب واحد هو «القرآن الكريم»، قرأت القرآن منذ صغرى، وتعلقت به، ومازلت أقرأ

فيه بشكل يومى، ولو أجزاء قليلة. قرأت كذلك كتب التفاسير خاصة تفسير القرطبى، وتفسير سيد قطب «فى ظلال القرآن» وإن كان أكثر هذه التفاسير راحة وسهولة بالنسبة إلى هو «منتخب التفاسير» الصادر عن مجمع البحوث الإسلامية».

ثم يقول نجيب محفوظ: «ترجع عادة عدم قراءتى للكتاب الواحد أكثر من مرة، إلى أننى بدأت تثقيف نفسى ثقافة أدبية فى وقت متأخر نسبيا من حياتى، وبالتحديد بعد عامين من تخرجى فى الجامعة، فكان الوقت أمامى ضيقا، وعلى أن أقرأ كل ما يقع تحت يدى، وكل ما يتعلق بالأدب، وهو كثير، ومن هنا لم يكن عندى من الوقت ما يسمح لى بقراءة ما سبق أن قرأته حتى لو نال إعجابى أكثر من غيره، فقد كنت أعتبر ذلك ترفا لا أقدر عليه، ولا يسعفنى الوقت لمثل هذا الترف، وهذه خطة لم أحد عنها أبداً، أما علاقتى بالقرآن الكريم فقد توطدت أكثر بعد تعلقى بأصوات كبار القارئين للقرآن فى ذلك العصر، وخاصة صوت الشيخ «على محمود» الذى يمكننا أن نقول عنه إنه كان يملك صوتا موازيا للوطن، فإذا كان مشهد الوطن يحرك مشاعرك، فكذلك كان صوت الشيخ على محمود فى ترتيله للقرآن، وكنت أداوم على سماع الشيخ على محمود

فى الليلة التى كان يحييها فى أيام مولد سيدنا الحسين، وأظل ساهرا حتى مطلع الفجر مبهورا بصوته المعجز، وكنت أداوم على سماعه فى الوقت المخصص له بالإذاعة، وفى الذكرى السنوية لوفاة سعد زغلول، فى ٢٣ أغسطس من كل عام، كان يقام فى حى الحسين سرادق ضخم، وفى الغالب يضم أكثر من ثلاثة آلاف شخص، إلا أن صوت القارئ، سواء أكان الشيخ على محمود أم الشيخ البربرى، كان يصل إلى الناس بسهولة دون استخدام الميكروفون، الذى لم يكن قد ظهر حتى ذلك الوقت، وكان للشيخ البربرى، طريقة فريدة فى ترتيل القرآن، لم أسمعها من قارئ قبله أو بعده، فهى طريقة أقرب إلى الخطابة، ولكن بشكل جميل مؤثر، وقد كان للقرآن وأسلوبه وموسيقاه العذبة أثر كبير فى أسلوبى فى الكتابة، وظهر ذلك بشكل واضح فى «أحاديث الصباح والمساء»، والتى قال عنها الناقد الدكتور «محمد حسن عبد الله» فى كتابه «الإسلامية الروحية فى أدب نجيب محفوظ»، إن تلك القصص تسير على نفس المنهج الذى سارت عليه قصص القرآن، وإنه قد ظهر فيها تأثره البالغ بأسلوب القصص القرآنى. أما أكثر سور القرآن التى سحرتنى بموسيقاها

وأسلوبها، فهى سورة «الرحمن»، وأتذكر أن صحفيا أمريكيا جاء إلى القاهرة ليجرى معى حديثا، وسألنى عن علاقتى بالقرآن وتأثيره فيّ وأسئلة أخرى، ثم سافر عائدا إلى بلاده، وبعد بضعة أيام فوجئت برسالة بريدية منه يقول فيها إنه نسى سؤالاً مهما يريد الإجابة عنه، وكان السؤال هو: ما أحب سور القرآن إلى نفسك؟ وأرسلت الإجابة قائلا له: إنها سورة الرحمن».

ولأهمية هذا الجانب فى شخصية نجيب محفوظ، وفى أى تحليل لرواية «أولاد حارتنا» فمن المفيد أن نواصل قراءة بقية ما جاء فى حديث نجيب محفوظ عن علاقته الوثيقة بالقرآن الكريم، حيث يقول: «بلغ من تأثرى بالقرآن والكتابات الإسلامية أننى اخترت لرسالة الماجستير التى كنت أنوى إعدادها بعد تخرجى فى قسم الفلسفة بكلية الآداب، موضوعا هو «فلسفة الجمال فى الإسلام» وعرضت الموضوع على أستاذى الشيخ مصطفى عبد الرازق فوافق عليه وتحمس له، ورغم جرأة الموضوع، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يقبل فيها أستاذ للفلسفة الإسلامية موضوعا بهذه الخطورة، ولم يخش ما يمكن أن يجره عليه من مشكلات ومتاعب، خاصة بعد الغضب الشديد الذى تعرض له المفكرون المستنيرون من

أمثال طه حسين وزكى مبارك ومنصور فهمى.

وقد كنت أنوى أن أقدم صورة جديدة للإسلام، أظهر فيها اهتمامه بالجمال والتذوق والانفتاح على العالم، وأنه لم يدع أبدا إلى الزهد والانغلاق والخصومة مع الحياة، ولكننى انصرفت إلى الأدب وركزت جهدى كله فى مجاله، ولم أكمل مشروع دراسة الماجستير».

وأخيرا يقول نجيب محفوظ: «أخرج من هذه الجزئيات كلها بأن أقول لك: إن فى أعماق قلبى وروحى إيمانا بالله لم تنتزعه منى دراستى للفلسفة ولا تفكيرى المتصل فى مشاكل الإنسان والمجتمع والكون».

ويتصل بهذه الكلمات أوثق الاتصال قول نجيب محفوظ: «إن الدين الإسلامى فيه مرونة، وهو يتضمن المبادئ الحديثة مثل الديمقراطية والحرية والاشتراكية، كما أنه يحث على العمل والإنتاج والابتكار، وبذلك يكون الإسلام دينا كاملا وهو أيضا إنسانى وعالمى، فهو ليس مثل ديانة «الشنتو» اليابانية التى تقول للياباني: «جزيرتك أعظم جزيرة، وملكك أعظم ملك، ولا بد أن تعمل لتضع جزيرتك فقط وملكك فقط فى المكانة اللائقة»..

الإسلام دين إنساني للجميع، وهو يتكلم بكل لغات العالم».

علام يدل هذا كله؟ إنه دلالة واضحة على أن نجيب محفوظ مسلم عن وعى لا عن خوف، مؤمن بدينه متحمس له، يشعر دائما بأنه دين للإنسانية جمعاء ولكل العصور، وهو يعلن ذلك بوضوح فى كثير من أقواله وأحاديثه، وذلك دون أن يطلب منه أحد ذلك أو يفرضه عليه، وهذا ولا شك عند من يحسنون الظن بالناس ولا يسارعون إلى اتهامهم دون دليل ثابت، فيه إشارة واضحة إلى أن صاحب مثل هذه الأقوال والكلمات هو أيضا صاحب إيمان قوى لا يوجد ما يدعو إلى التشكيك فيه، وما دام الأمر كذلك فإن الذين سارعوا إلى اتهام نجيب محفوظ بأنه قد أصابته لعنة الكفر فى روايته «أولاد حارتنا» لم يكونوا معتمدين على أدلة لها قيمة حقيقية، وإنما هى اتهامات قائمة على سوء الظن بنجيب محفوظ دون أى مبرر لذلك!

على أن هناك واقعة أساسية كان لنجيب محفوظ رأى واضحا فيها، هى واقعة صدور رواية «آيات شيطانية» للكاتب الإنجليزى الهندى الأصل «سلمان رشدى» سنة ١٩٩٨، وهى

السنة نفسها التى نال فيها نجيب محفوظ جائزة نوبل ، وما تلا صدمة رواية «أيات شيطانية» التى تتضمن طعنا واضحا فى الإسلام وفى بعض الشخصيات الإسلامية الأساسية التى يوجد إجماع على احترامها وعدم المساس بها مثل السيدة عائشة. وبعد ظهور هذه الرواية بخمسة أشهر تقريبا . صدرت فتوى من الإمام الخمينى قائد الثورة الإيرانية بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٨٩ ، يعتبر فيها سلمان رشدى مرتدا عن الإسلام ويحل قتله، وأن الحكومة الإيرانية قد رصدت مبلغ أربعة ملايين دولار لاغتيال مؤلف هذه الرواية، أى سلمان رشدى.

هنا كان لنجيب محفوظ موقف واضح، وفى هذه الإدانة المزدوجة ما يكشف عن طريقة التفكير عند نجيب محفوظ، وليس فى هذه الطريقة ما ينطوى على أى إشارة من قريب أو بعيد إلى أن نجيب محفوظ يعادى الإسلام، أو يتفق فى أى شئ مع من يتعرضون له بالشر والسوء، وهذا هو ما سمعته وسجلته على لسان نجيب محفوظ عن قضية سلمان رشدى: «عندما أصدر آية الله الإمام الخمينى فتواه الشهيرة بإهدار دم الكاتب الهندى سلمان رشدى بسبب روايته «آيات

شـيطانيـة» جـاءنى مندوبون من صـحف وإذاعـات وقنوات للتليـفزيون من شـتى أنحـاء العـالم ليتـعرفـوا إلى رأيى فى القضـية، وقد سجلت أكثر من اثنى عشر حديثا حول هذا الموضـوع، وفى الإجـابة عن سـؤال هو: مـا رأيك فى «آيات شيطانية»؟ قلت: لم أقرأها. وليكن سؤالكم هـو: ما رأيك فى رئيس دولة يهـدر دم كـاتب فى دولة أخـرى، لأنه أبدى رأيا مخـالفا فى عقيـدة مشتركة؟ إن الفتوى بإهدار دم سلمان رشدى ليست من الإسـلام فى شئ، وهى ضد القانون الدولى والمبـادئ الإنسـانيـة، وللكاتب كل الحـرية فى أن يقـول رأيه، والفكر يتم الرد عليه بالفكر وليس بالرصـاص. بعد ذلك قرأت ما كتبه الأستاذ أحمد بهاء الدين عن «آيات شيطانية» وعرفت منه أن الآيات هى رواية، وليست كـتابا كما كنت أتصور فى البداية، كما عرفت أن فى الرواية تجديفا وشطحات شرحـها بهاء فى صورة شاملة عميقة جعلتنى أعيد النظر فى المسألة، وفى حديث لشبكة «سى - بى - سى» الإنجليزية، قلت رأيا جـديدا بناء على المعلومـات التى استـقـيتـهـا عن الرواية، وملخص مـا قلته هو أن مـا كتبـه سلمـان رشـدى يدخل تحت بند «السب والقذف»، وعلى سلمان رشدى أن يتوب، والإسلام

يقبل التوبة إذا كانت صادقة وخالصة، وهذا ليس معناه مصادرة حرية الفكر، فما كتبه سلمان رشدى كان من منطلق حريته الفكرية، وتراجعه سيكون من نفس المنطلق، وقد سألنى المذيع الذى يحاورنى: وبماذا تنصح سلمان رشدى فى مخبئه؟ فأجبت: من الصعب أن أوجه نصيحة لكاتب من المفروض أنه من قادة الفكر، فالأمر يرجع فى الأساس إلى ضميره، فإن كان متمسكا بآرائه التى عبر عنها فى روايته، فليس له عندى نصيحة، ولا أستطيع أن أجبره على تغيير آرائه، أما إذا كان سلمان رشدى يشعر بالخطأ والندم، ففى هذه الحالة أوجه له هذه النصائح:

أولا: أن يعلن توبته كما هو مطلوب منه.

ثانيا: أن يمنع ما استطاع توزيع الرواية والترويج لها.

ثالثا: أن يتبرع بأرباحه منها لإحدى الجهات الإسلامية.

ثم يقول نجيب محفوظ: «فى حدود علمى بالشريعة الإسلامية، لا يجوز حكم القتل فى المرتد إلا إذا استتابه أولو الأمر، أى دعوه إلى التوبة، فإن تاب ورجع، يلغى حكم القتل، وتكون توبته مقبولة، ولذلك اعترضت على الفتوى الإيرانية بعد

رحيل الإمام الخميني بأن هذه الفتوى قائمة ولن يتم إلغاؤها، واعتراضي مبني على عدة أسباب، أولها أن هذه الفتوى فيها حكم متعسف وغير إسلامي لأنه يقفل باب التوبة، والله تعالى يقول: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا»، والتاريخ الإسلامي يحكي لنا قصة السيدة التي ذهبت إلى النبي واعترفت بارتكابها جريمة الزنا، فحاول أن يراجعها وأن يساعدها على إعادة التفكير في اعترافها.. تلك هي سماحة الإسلام كما نفهمها. وثاني أسباب اعتراضي على الفتوى الإيرانية هو أن الذين أصدروا حكمهم على الرواية وشنوا الحملة على صاحبها لم يقرأوها، وإنما بني معظمهم حكمهم عليها اعتمادا على تلخيصات لها أو على حكم الآخرين عليها، والمنطق يقول إنه كان عليهم أن يقرأوا الرواية أولا ويفهموا مغزاها جيدا ويردوا على صاحبها، والسبب الثالث الذي يجعلني أقف ضد الفتوى الإيرانية هو أن الإسلام طالما تعرض لحملات افتراء وتشويه، ولم تزده هذه الحملات إلا قوة وصلابة، وفي رأيي أن الفكرة السليمة إذا تعرضت لهجوم فإنها تزداد قوة في نفوس معتنقيها والمؤمنين بها، خاصة

عندما تكون حجج الهجوم واهية، ويكون الدفاع عنها مبنيا على براهين ساطعة واضحة».

هذا ما يقوله نجيب في قضية سلمان رشدي، وفي هذه الأقوال ما يضاف إلى آرائه الأخرى في الدفاع عن الإسلام والحرص على العقيدة الدينية، بحيث إن الذين يسارعون إلى اتهام نجيب محفوظ بالكفر والردة عن الإسلام لم يكن لديهم شئ يثبتون به مثل هذه التهمة الثقيلة، والحجة الوحيدة التي كانت بين أيديهم هي رواية «أولاد حارتنا»، والرواية نفسها ليس فيها ما يبرر الإدانة التي تنتج عن التفسير الديني للرواية، وكثيرون من الذين أخذوا بهذا التفسير لم يقرأوا الرواية، والذين قرأوها قاموا بعملية «ترجمة لها» من أحداثها الخيالية إلى أحداث تتصل بالتاريخ الديني للإنسان، وبعد ترجمة الرواية بهذه الطريقة العجيبة، يتم الحكم عليها بأنها ضد الدين، والحقيقة أن الذين أصدروا هذا الرأي، أو هذا الحكم قد أصدروه حسب ترجمتهم للرواية وأحداثها وشخصياتها، فاعتبروا أن بطل الرواية الأصلي «الجبلاوي» هو الله سبحانه وتعالى، وأن «أدهم» و«جبل» و«رفاعة» و«قاسم» هم أنبياء الله: آدم وموسى وعيسى ومحمد، عليهم أفضل الصلاة والسلام، فالحكم الصادر ضد الرواية هو حكم

ليس قائما على نصها الأصلي، ولكنه قائم على ترجمته، أى على تفسيرها تفسير دينيا. وهذا هو جوهر المشكلة، فالتفكير الديني للأدب هو أمر من أخطر الأمور، والخطورة فيه أنه يتعامل مع فن قائم على الخيال، ويحكم عليه باعتبار أن هذا الخيال هو واقع أو هو تاريخ، وإذا أخذنا بمثل هذا التفسير الديني للأدب والفنون، فإن علينا أن نلغى الكثير من الأعمال الكبرى التى عرفتها الإنسانية فى عصورها، ومن هذه الأعمال «الإلياذة» التى لا تزال حتى اليوم عملا أدبيا مليئا بالبريق والجاذبية والجمال الفنى الساحر، فهذه الملحمة تقوم فى بنائها الخارجى على مناخ وثنى يؤمن بتعدد الآلهة، ولكن «الإلياذة» بعد هذا الظاهر الوثنى تقدم فى داخلها تعبيرا رائعا عن مشاعر عميقة، وقضايا تتصل بمصير الإنسان فى هذا العالم، وما يدور فيه من صراع بين الخير والشر، وهذه المعانى الإنسانية جميعا هى التى أعطت للإلياذة قوتها وسحرها وخلودها على مر الأيام، ولابد من قراءة «الاإلياذة» قراءة أدبية فنية فلسفية، وذلك للاستمتاع بجمالها الفنى والأدبى مع التأمل فى أفكارها العميقة التي تصور حياة الإنسان ومشكلاته أعظم وأصدق تصوير، وهذه هى القراءة الوحيدة الصحيحة لملحمة «الإلياذة»، وهى القراءة التى

التزمها أهل الأديان السماوية المختلفة للإلياذة ، فاستطاع هذا العمل الخالد أن يعيش، على الرغم من أنه ظهر، كما يقول المؤرخون، نحو ٣٥٠٠ قبل الميلاد، أى منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة ، ولو أننا قرأنا الإلياذة قراءة دينية، فسوف نحكم عليها من أول لحظة بأنها عمل «وثنى» لا يستحق سوى أن نحرقه فى ميدان عام، ولا نترك له أثراً يدل عليه بعد ذلك، وهى حماقة لم ترتكبها الإنسانية فى أى عصر من العصور، لأنه منذ البداية كان هناك فروق واضحة بين الأدب كفن من فنون الخيال، والواقع الحقيقى وأحداث التاريخ وشخصياته.

وما ينطبق على «الإلياذة» ينطبق على عمل أدبى عربى أصبحت له مكانة عالمية وهو «رسالة الغفران» لشاعرنا العظيم أبى العلاء المعرى، فقد تخيل أبو العلاء رحلة إلى العالم الآخر، حيث وجد بعض الشعراء فى الجنة وبعضهم فى النار، وهذه فكرة خيالية لا يمكن قراءتها إلا على أنها أدب، أما إذا قرأناها قراءة دينية فسوف نجد الكثير من الأسئلة تظهر بعنف أمامنا، وفيها من أعطى لأبى العلاء الحق فى تصوير الجنة والنار، ومن أعطاه الحق فى أن يذهب ببعض الشعراء إلى الجنة ويذهب بشعراء آخرين إلى الجحيم، ثم

لماذا قام أبو العلاء بمحاسبة الشعراء وتصنيفهم بعد ذلك بين «أهل الجنة» و«أهل النار»؟ إن الحساب والعقاب فى الآخرة ليسا من الأمور التى يصح للإنسان أن يقوم بها، ولا هو قادر عليها، لأنها مما يدخل فى قدرة الله سبحانه وتعالى وحده، وليس له فيها شريك آخر. فالقراءة الدينية لرسالة الغفران سوف تنتهى أيضا بتكفيرها وتكفير صاحبها أبى العلاء، وهو ما لم يحدث على الأقل بالنسبة لرسالة الغفران، لأن الناس قرأوا هذه الرسالة جيلا بعد جيل على أنها أدب، أى أنها خيال لا علاقة له بالواقع، ولا يمكن الحكم عليها بمقاييس واقعية، أى النظر إلى ما جاء فيها على أنه هو ما حدث فعلا، وأن أبا العلاء المعرى مسئول عن الأحداث الخيالية الواردة فى هذه الرسالة.

وهذا هو نفسه ما يمكن أن يقال عن أى أدب من آداب العالم، ومنه الشعر العربى، فالكثير منه ونصفه على الأقل يستحق الإعدام والإحراق فى ميدان عام إذا قرأناه قراءة دينية، لأن عالم الخيال هو عالم الأدب وله لغته الخاصة، والناس حين يقرأون هذا الأدب لا ينسون أنهم يعيشون فى عالم الخيال، وأن ما يجرى فى هذا العالم أو يقال فيه ليس هو الواقع بأى حال من الأحوال، ولا يمكن حسابه أبدا

بالمقاييس الواقعية ، وبالمقاييس الدينية على وجه الخصوص، فذلك معناه أن معظم الأعمال الأدبية سوف تكون خارجة على الدين، وسوف تكون بهذا المقياس مرفوضة، ويكون الناس مطالبين بإحراقها ونفض أيديهم منها بصورة نهائية، ولعل هذا هو ما أصاب الأديب الروسى العالمى الكبير تولستوى» ١٨٢٨-١٩١٠ ، صاحب رواية «الحرب والسلام» ورواية «أنّا كارنينا» وغيرهما من الروائع الأدبية ، وذلك فى مرحلته الدينية التى ملأت عليه الفترة الأخيرة من حياته، حيث كان يؤمن إيمانا عميقا بأن ما يتفق مع الإحساس الدينى، أو ما كان ينسميه باسم «الإحساس بالتناسق أو التناسب» فى هذا الوجود، هو وحده الذى يستحق أن يبقى فى الفن، ولذلك كان تولستوى يلعن شكسبير ويسبه لأنه فيما أظن قد قرأه قراءه دينية، ولم يقرأه قراءة أدبية فنية ، ومن أقوال تولستوى عن شكسبير قوله: «مهما قال الناس عن شكسبير، ومهما كانوا معجبين بأعماله، ومهما كانت الميزات التى يمكن أن ينسبوها إلى هذه الأعمال؛ فمن المؤكد أن شكسبير - هذا - ليس فنانا، وأن أعماله ليست أعمالا فنية»، ثم يقول تولستوى: «هناك مقياس أساسى للفنان، هو ما يمكن أن نسميه باسم «الإحساس بالتناسق أو التناسب»،

ومن دون هذا الإحساس لا يمكن أن يوجد الفنان؛ إنه لم يوجد من قبل ولن يوجد فى المستقبل، بالضبط كما أنه لا يمكن أن يوجد موسيقار من دون «الإحساس بالنغم»، وشكسبير – بهذا المقياس – يمكن أن يكون أى شىء، إلا أن يكون فنانا»!

هذا ما كان يقوله تولستوى عن شكسبير، وهو رأى دينى أكثر منه رأيا فنيا أدبيا، والحقيقة أنه من خلال القراءة الدينية لأعمال شكسبير، فإن هذه الأعمال تبدو غارقة فى المعصية وعدم الامتثال للقضاء والقدر، وعدم الإحساس بأن فى هذا العالم المضطرب إلهاً يديره، ويحميه ويحدد له مصيره، ولكن هذه القراءة غير صحيحة وغير مناسبة لفن الأدب وغيره من الفنون.

ولو أخذنا بالقراءة الدينية للأدب، فسوف نحرق الكثير من شعر المتنبى وشعر أبى العلاء، وسوف نحرق كل شعر «أبى نواس»، وهذا كله خطأ؛ لأن القراءة الدينية للأدب ليست عادلة، ولا تمثل مدخلا سليما لفهم الأدب، فالأدب خيال، والدين قوانين وقواعد وفروض ومبادئ وسلوك واقعى، ولا يجوز الخلط بين الاثنين.

وقد جاءت المحنة لرواية «أولاد حارتنا» ولنجيب محفوظ من خلال هذه القراءة الخاطئة، أى القراءة الدينية لفن يقوم على الخيال هو فن الأدب، وهو فن لا يمكن محاسبته على ما هو خيال فيه، بل على ما يدعو إليه. هذا الخيال من أفكار ومبادئ، توجد كلها وراء ما هو ظاهر فى الأدب من تصورات خيالية للحياة والناس.

منذ «أولاد حارتنا» ومحنة نجيب محفوظ أن الذين حكموا على الرواية بالإعدام وإهدار دم كاتبها، قد قرأوا الرواية، إن كانوا قد قرأوها على أنها تقدم أحداثا واقعية، وأن أسماء أبطالها تشير إلى أسماء واردة فى الكتب الدينية، وقد أهمل هؤلاء تماما أن الرواية بأحداثها وأشخاصها هى أدب خالص، أى أنها خيالية وأن ما وراء هذه الرواية الخيالية هو الحكمة الكبيرة والمعادلة الأساسية التى اعتنقها نجيب محفوظ وهى أن «الإيمان بالله + العلم = الإسلام». أما أحداث الرواية وأشخاصها فهى خيال فى خيال.

رحلة أخيرة مع «أولاد حارتنا»

ما حقيقة الفتوى التى أصدرتها وزارة الأوقاف بتكفير محفوظ وروايته؟!

نتوقف فى هذا الفصل مع الجزء الأخير من رحلتنا مع «أولاد حارتنا»، وهى الرواية التى تستحق أن نقول عنها إنها أشهر وأخطر رواية عربية فى القرن العشرين ، لا من حيث قيمتها الفنية، فقد يكون هناك ما ينافسها حتى من روايات نجيب محفوظ نفسه، وليس من الصعب أبداً أن نجد بين روايات نجيب محفوظ ما يوازى «أولاد حارتنا» فنيا، بل وأن نجد فى هذه الروايات ما يتفوق عليها، ولكن شهرة «أولاد حارتنا» وأهميتها، راجعتان إلى الأثر الواسع الذى أحدثته الرواية فى مجتمع مصر بصورة أساسية، وفى المجتمعات العربية الأخرى.

فلا توجد رواية أثارت ما أثارته «أولاد حارتنا» من ردود فعل ومواقف تجاوزت الأوساط الثقافية والأدبية إلى المواطنين

العاديين من غير المهتمين بالأدب، أو بالقضايا الثقافية عموما؛ فقد كانت رواية «كاشفة»، ألقت أضواء قوية على الطريقة السائدة فى تفكير جانب لا يستهان به من المواطنين، وهذه الطريقة فى التفكير تقوم على فهم ضيق للدين؛ فالثقافة الدينية الضيقة هذه، هى الثقافة التى أصبحت لها السيطرة عند غالبية المواطنين الآن. والدين بهذا الفهم الضيق هو الأساس فى التفكير والتعامل والسلوك، ومن ناحية أخرى فإن هذا النوع من التفكير الدينى يقوم على مقدسات ليس فيها اجتهادات غير قابلة للحوار أو للاختلاف، أو حتى لطرح أى سؤال من أى نوع؛ فطرح الأسئلة نقيض لليقين الدينى الكامل، وهو نوع من الجرأة على المقدسات والمخاطرة بارتكاب المحرمات.

وفى هذا النوع من الثقافة السائدة؛ فإن التسليم هو الواجب الأول للإنسان، وعليه أن يلتزم بما يسمعه ممن يرى أنهم علماء فى الدين، وليس له أن يخرج على الطاعة مطلقا.

تلك هى الثقافة الدينية التي كانت ولا تزال، سائدة ومسيطرة على عقول الأغلبية من المواطنين

في مجتمع مصر في ربع القرن الماضي، وهذا هو ما كشفته رواية «أولاد حارتنا»، وهى لم تكشفه فجأة، وإنما بالتدريج، فقد تم نشر الرواية مسلسلة فى الأهرام سنة ١٩٥٩، ولم تظهر فى كتاب مطبوع عن طريق دار «الآداب» فى بيروت، إلا بعد ذلك بسنوات عديدة، وفى تلك الأيام كان مجتمع مصر مشغولا بقضايا كبيرة تستولى على اهتمام معظم الناس، مثل مواجهة إسرائيل، والحلم ببناء المجتمع الجديد الذى يمكن أن تتحقق فيه تنمية تضمن لشعب مصر شيئا من الرخاء الذى ظل محروما منه لمئات من السنين، وفى غمرة انشغال أهل مصر بهذه المشكلات الكبيرة لم يظهر أى عداء لرواية «أولاد حارتنا» إلا على شكل «همس» محدود، وكان هذا الهمس يدور على لسان بعض الكتاب الذين رفضوا الفن والأدب، والروايات على وجه الخصوص، باسم الدين، ورأوا أن كتابة «الرواية» هى نوع من الكفر والإلحاد، والنموذج المعروف لهذه الأفكار والادعاءات الغريبة يقدمه لنا الأستاذ «أنور الجندى» فى كتبه العديدة.. فقد ألف عشرات الكتب، وكتاباته للحق، هى مراجع مهمة جدا من حيث جمع المعلومات، ولكنها من حيث التحليل وإصدار الأحكام تبدو أعجوبة نادرة المثال فى انحرافها عن الموازين العادلة، ويكفى

أن أشيز هنا إلى أنه انتهى فى كتابه «طه حسين فى ميزان الإسلام» إلى القول: «إن طه حسين كافر ملحد مرتد، وإنه عميل لفرنسا»، والأدهى من كل ذلك أنه «عميل للصهيونية، وداعية لها فى مصر والعالم العربي»، وبمثل هذا الهزل والتسرع فى الفهم وإصدار الأحكام، كان أنور الجندى يعد «الرواية» فنا استعماريا من الأساس، فما بالك برواية مثل «أولاد حارتنا»، فيها شبهة المساس بالدين والذات الإلهية؟.

على أن هؤلاء الكُتَّاب الذين كانوا يتحدثون هذه اللغة ويطرحون مثل هذه الأفكار فى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى، كان صوتهم ضعيفا، وكان تأثيرهم معدوما أو شبه معدوم، بل لقد كانوا أحيانا موضع التندر والسخرية، لما هو ظاهر فى آرائهم من خفة ونقص فى الثقافة وقلة عقل وسطحية.. ولقد صدق طه حسين عندما وصف واحدا من هؤلاء الكتاب الذين يملكون شجاعة إعلان آراء بهذه التفاهة على الناس بأنه رجل «قد رضى عن جهله، ورضى عنه جهله»، ولذلك فإن أمثال أنور الجندى لم يؤثروا فى شئ على رواية «أولاد حارتنا»، وكل ما فعلوه هو أنهم أثاروا حولها بعض الشبهات التى لم يلتفت إليها الناس، لأنهم فى الستينيات

والسبعينيات من القرن الماضي كانوا- كما أشرت من قبل - مشغولين بقضايا أخرى أكبر وأهم.

على أن «الهمس» ضد رواية «أولاد حارتنا» قد وصل إلى أعلى المسؤولين في الدولة، حتى عندما كانت الرواية يتم نشرها مسلسلة بصورة يومية في جريدة الأهرام، ابتداء من شهر سبتمبر سنة ١٩٥٩، ولسنا بحاجة إلى الإشارة، إلى أن الأجهزة الأمنية في عهد عبد الناصر بالتحديد كانت أجهزة قوية، وكانت تستمع إلى كل شئ حتى ما كان منه همسا لا يكاد يسمعه إلا قائله ومن يجاوره، وقد كان هذا طبيعيا، لأن عبد الناصر كان له أعداء كثيرون، وقد ظن هؤلاء الأعداء أن الأسهل لهم هو إسقاط عبد الناصر من الداخل، ولكن قوة الأجهزة الأمنية الناصرية أثبتت استحالة إسقاط عبد الناصر ونظامه بهذه الطريقة، أي من الداخل، فكان التدبير البديل هو ما حدث في يونيو ١٩٦٧م.

بعد هذا الاستطراد العابر، أعود إلى «الهمس» القائم على اتهام الرواية بالخروج عن الدين، إلى جمال عبد الناصر الذي كان أيامها في عز قوته وزعامته «١٩٥٩-١٩٦٠»، ويقال إن عبد الناصر سأل الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس

تحرير «الأهرام» التى تنشر الرواية عن الموضوع، ويقال أيضا إن عبد الناصر قرأ الرواية عن طريق نسخة كاملة أرسلها هيكل إليه، ولكن هذا كله هو من الأحاديث الشفوية التى ليس عليها دليل ثابت يؤكدها أو ينفيها، والشئ الوحيد الذى لا شك فيه هو أن عبد الناصر قد سمع بما يقال عن الرواية، وأنه وافق على رأى هيكل بأن يستمر فى نشر الرواية حتى آخر فصل فيها، ونجيب محفوظ يعترف بفضل هيكل فى نشر الرواية، إذ إن من الواضح أن هيكل قد بذل جهدا كبيرا وناجحا فى سبيل استمرار الرواية فى الظهور على صفحات الأهرام حتى سطرها الأخير.. وعن هذا الموقف الذى وقفه هيكل إلى جانب الرواية، تحدث نجيب محفوظ فى أحد أحاديثه معى، والذى نشرته فى كتاب «نجيب محفوظ- صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته»- صفحة (١٤٣)، فقال: «لقد دافع الأستاذ محمد حسنين هيكل عن الرواية، ولولا دفاعه لكان قد توقف نشرها فى الأهرام فورا».

وبهذا نجد أن الدولة عند نشر «أولاد حارتنا» لم تأخذ بالهمس الدائر حولها والمعادى لها، وكل ما فعلته الدولة أنها قالت لنجيب محفوظ على لسان الدكتور حسن صبرى الخولى

الممثل الشخصي للرئيس عبد الناصر في ذلك الوقت، إن رواية «أولاد حارتنا» ليس من الممكن نشرها في مصر على شكل كتاب مطبوع، لأنه في حالة صدور مثل هذا الكتاب سوف تحدث مشكلة كبيرة مع الأزهر، واقترح الدكتور الخولي على نجيب محفوظ، من أجل تجنب هذه المشكلة، أن يتم نشر الرواية خارج مصر.

وهكذا لم يتعرض نجيب محفوظ، ولا روايته «أولاد حارتنا» إلى أي ضغط من الدولة، بل من الواضح على العكس، أن الدولة كانت متعاطفة معه وتريد له أن يتجنب أي اصطدام مع المؤسسات الدينية وعلى رأسها الأزهر.

وعندما نراجع تلك الفترة مراجعة دقيقة، أي سنة ١٩٥٩، وما بعدها، وهي الفترة التي ظهرت فيها «أولاد حارتنا»، لن نجد شيئا واضحا يمكن الاعتماد عليه في مجال الاعتراض على الرواية، والحق أنني بعد بحث بذلت فيه غاية الجهد، لم أجد ما يمكن أن نسميه وثيقة ثابتة على إدانة الرواية، سواء أكانت هذه الوثيقة دينية أم غير دينية، ولكني توقفت طويلا أمام شهادة قدمها الأديب المعروف الأستاذ «سليمان فياض» ونشرها في جريدة «الأهالي» المصرية بتاريخ ٢٣

نوفمبر سنة ١٩٩٤ .

وهذه الشـهـادة بالغة الأهمـيـة، ولا يوجـد مـا يدعـونا إلى الشك فى صـدقهـا، وإن كانت فى النهاية لا تخرج عن كونها شهادة أديب، وأنها من المذكرات الشخصية، وهى خالية من تقديم «وثيقة» ثابتة تدل على ما جاء فى هذه الشهادة، ولو أن هذه الوثيقة لم تفلت من يد الأديب سليمان فياض، لكانت هى الدليل على أن المؤسسـات الدينيـة فى مـصـر قـد عـارضت الرواية واعترضت عليها.

على أن المؤسسة الدينية فى شهادة سليمان فيـاض لم تكن هى مـؤسـسـة الأزهر، بل كـانت هذه المرة هى «وزارة الأوقاف»، حيث يقول سليمان فياض فى شهادته التى أراها مـهـمـة جـدا: قـدر لى «فى أواخـر الخـمـسـينيـات وأوائل السـتـينيـات» أن أعمل لفـتـرة من الوقت فى وزارة الأوقـاف، وكنت سكرتيرا للجنة «الدفاع عن الإسلام» مع الشيخ سيد سابق الذى صافحه عبد الناصر يوما، قائلا له: «أهلا بمفتى الدم»، فـقـد كـان الشـيـخ سـيـد هو الذى أطلق الفـتـوى بقـتـل محمود فهمى النقراشى باشا رئيس وزراء مصر سنه ١٩٤٨، أو هكذا قيل و شاع».

وكان يعمل فى لجنه «الدفاع عن الإسلام» مع الشيخ سيد سابق الشيخ محمد الغزالى، ويقول سليمان فياض «لقد تبدى لى الوجه القاسى للشيخين الجليلين سيد سابق ومحمد الغزالى «وراء وجهيهما البشوشين الناعمين، هذا الوجه القاسى، الذى ظهر لى واضحا من خلال موقفهما من نجيب محفوظ وروايته «أولاد حارتنا» وكان الشيخان مسئولين معا عن إدارة المساجد والدعوة والدعاة، وقد «ابتكرا» لجنه للدفاع عن الإسلام، والمفروض أن هذا الدفاع كان ضد افتراءات بعض المستشرقين و الرد عليها، ولكن هذا الدفاع امتد أيضا، ولأول مره وعلى أيدى الشيخين : سابق والغزالى، ضد مسلم يشهد الشهادتين، وتهمته عندهما أنه كتب «رواية» يحار النقاد فى تفسيرها فنيا، وهى ليست عملا مباشرا يثير شبهات الفقهاء، حدث ذلك فى غرفة أنيقة، حول منضدة حديثة، ومقاعد مريحة، حين اجتمعت لجنة «الدفاع عن الإسلام» وتصدرها الشيخ سيد سابق كرئيس وأمين لهذه اللجنة، وكان الشيخ محمد الغزالى عضوا فى اللجنة، ودارت مناقشة حول «أولاد حارتنا»، وكانت هذه المناقشة أشبه عندى بكابوس ثقيل . وكان الشيخ الغزالى فى هذه المناقشة يؤكد ويقسم، وكان الشيخ سابق يؤيد ويحرض، وأخيرا أخذ منى

الشيخ الغزالي الأوراق البيضاء، ولم يدون بدلا منى محضرا للجلسة ، لكنه قدم فى النهاية ورقتين يستعرض فيهما «أولاد حارتنا»، من زاوية الاتهام وحدها، ولا يتيح للرواية أى دفاع عنها، وأكثر الحاضرين من أعضاء لجنة الدفاع عن الإسلام لم يقرأوا الرواية وإن قرأوها فإنهم لم يتوقفوا عندما قرأوها».

ثم يقول سليمان فياض بعد ذلك: «فى الورقتين اللتين كتبهما الشيخ الغزالى، كانت الإدانة لرواية «أولاد حارتنا» فى غيبة عن الدفاع والمتهم، ولم يكن من حقى، ولا من عملى كسكرتير للجنة «الدفاع عن الإسلام»، أن أمثل دور الدفاع عن نجيب محفوظ و«أولاد حارتنا»، ولست بالأحمق الذى يسعى إلى تهييج الأسد فى عرينه، وهو الخصم والحكم، وأخذ الشيخ سيد سابق الورقتين اللتين كتبهما الشيخ الغزالى ودفع بهما بعد انفضاض الجلسة «التاريخية» إلى سكرتيرته فكتبتها على الآلة الكاتبة، ونجحت أنا فى إقناعها بزيادة نسختين للاحتفاظ بهما فى ملف اللجنة إلى وقت الحاجة إليهما، وقد احتفظت بهاتين النسختين لنفسى وقد حدث ذلك فى يوم خميس، وكنت أيامها من رواد مقهى

«ريش» لحضور ندوة نجيب محفوظ الأسبوعية، وذهبت مبكرا إلى الندوة لانفرد بضع دقائق بنجيب محفوظ، وأعطيت نجيب محفوظ الورقتين، وكانت كافية لإقناعه بصحة هاتين الورقتين وإحجامه عن السؤال، ولعل صدمة المفاجأة قد أخذته، وأذكر وجهه يومها وقد أصبح شديد الشحوب في الضوء الساطع على رصيف المقهى».

وهكذا حسب رواية سليمان فياض- ذهبت النسخة الأولى من «مذكرة» الشيخ الغزالى ضد «أولاد حارتنا» إلى نجيب محفوظ نفسه، فأين ذهبت النسخة الثانية؟.

يقول سليمان فياض: «حدث أن التقيت بالصديق غالى شكرى وثرثرت معه حول ورقتى وزارة الأوقاف، فثار فضوله وأخذته الحماسة، وأطلعته على الورقتين، وهما النسخة الوحيدة الباقية معي، وقد ألح عليّ غالى في الاحتفاظ بهما كوثيقة، فهو ناقد، وهذه هى مهمته، وخرجت أنا من الموضوع صفر اليدين، فنسخة مع نجيب ونسخة مع غالى شكرى، وغالى كان كلما ذكرته بها يؤكد لى أنه لم يأخذها منى، وأنه لا يعرف عن هذا الموضوع شيئا، وليس أمامى سوى الندم على عدم الاحتفاظ بنسخة من هاتين الورقتين اللتين تتضمنا

التكفير والاتهام بالإلحاد. وأحسب أن النسخ الأخرى لا تزال محفوظة كوثيقة بين وثائق لجنة الدفاع عن الإسلام، إذا كانت هذه اللجنة لا تزال قائمة بوزارة الأوقاف».

تلك هي الشهادة التي أدلى بها سليمان فياض، عندما كان سكرتيرا للجنة الدفاع عن الإسلام، وحسب ما جاء في شهادته، فإنه قد ترك العمل في لجنة وزارة الأوقاف، بعد الجلسة التي أدين فيها نجيب محفوظ، لأنه لم يجد في نفسه، وهو الأديب الفنان، القدرة على مواصلة العمل مع لجنة تنظر إلى الأدب هذه النظرة السلبية، وتدين الأدباء إدانات قاسية من دون أن تدخل معهم في حوار، ومن دون أن تعطيهم فرصة للدفاع عن أنفسهم. هذه الشهادة تدل على أن «فتوى» اتهام ضد نجيب محفوظ صدرت عن وزارة الأوقاف، بتوقيع رجال محترمين ولهم مكانتهم العالية وتأثيرهم في الناس، وكان على رأسهم الشيخ سيد سابق والشيخ محمد الغزالي، وفي هذه «الفتوى» هناك اتهام لرواية «أولاد حارتنا» بالكفر، ولكن هذه المذكرة لم يظهر لها أثر حتى اليوم، على رغم مرور أكثر من أربعين سنة من التاريخ التقريبي لصدورها، وطبعا فإن «لجنة الدفاع عن الإسلام» في وزارة الأوقاف لم يعد لها وجود، كما أن من الغريب جدا أن تتدخل وزارة الأوقاف في

مثل هذه القضية: لأنها لا علاقة لها بالحكم على الآراء والأفكار، فهى وزارة تنفيذية مسؤوله عن المساجد والخطباء وغير ذلك من الأمور، ولا شك أن وجود ما سمي بلجنة الدفاع عن الإسلام، كان كافيا لصدور مثل هذه المذكرة التى تستحق أن يطلق عليها اسم «الفتوى» الدينية، لأنها صادرة عن علماء كبار، إنها قائمة على اتهام بالتكفير والإلحاد، ومثل هذا الاتهام لا يكون إلا لفتوى دينية.

تلك هى الشهادة الوحيدة التى تقول إن مـ كرة» أو«فتوى» رسمية ضد رواية «أولاد حارتنا»..

ومما يرجح صحة هذه الشهادة أن الشيخ محمد
قد قام بزيارة نجيب محفوظ فى المستشفى بعد محـوله اغتياله فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٩٤، وقد وصف هذه الزيارة الأديب الروائى المعروف يوسف القعيد فى تحقيق أدبى له بمجلة «المصور» . وفى هذا التحقيق يقول القعيد: «شهران إلا قليلا، مرا على محاولة اغتيال نجيب محفوظ، وقد كان الشيخ الغزالى هو أول رجل دين يطرق بابه زائرا ومهنئا بالنجاة وداعيا له بطول العمر. لم يفعل ذلك أحد قبله، لا من المؤسسة الدينية الرسمية أو شبه الرسمية، ولا حتى من أهل الدين

الذين لا علاقة لهم بهذه المؤسسة أو تلك».

وفى هذا التحقيق الأدبى الذى كتبه يوسف القعيد، يقول الشيخ الغزالى: «لقد أدنت محاولة الاغتيال فى اليوم التالى لوقوعها، فأنا ضدها على طول الخط، ومثل هذه المحاولة لا يقرها شرع ولا دين، والإسلام دين السماحة والعقل».. وعندما وجه القعيد إلى الشيخ الغزالى سؤالا صريحا: هل مازلت عند موقفك القديم من «أولاد حارتنا»؟ قال الشيخ الغزالى، وكان ذلك أمام نجيب وفى حجرته بالمستشفى: «نعم أنا ضد هذه الرواية، وأرى أنها رواية تؤرخ للبشرية والأنبياء الذين أرسلوا إلى البشر كافة. ولكن هذا الموقف لم يمنعنى من زيارة نجيب محفوظ، وها أنذا أفعل».

إذاً هناك موقف قديم للشيخ الغزالى ضد «أولاد حارتنا» ولو أخذنا بشهادة سليمان فياض، فإن هذا الموقف كان نوعا من الفتوى الدينية التى تعد الرواية كفرا وإلحادا، وكان ذلك فى أوائل الستينيات من القرن الماضى، وهذه الفتوى لا أثر لها الآن، ولا يوجد أى مصدر لها يمكن أن يدلنا عليها، ولكننا فى سنة ١٩٩٤، نجد الشيخ الغزالى يزور نجيب محفوظ فى المستشفى بعد محاولة اغتياله، ويدعو له بالصحة وطول

البقاء، ثم يؤكد أنه ضد الرواية، وأنه يفسرها تفسيرا دينيا، ولكنه يعترض على الذين حاولوا اغتيال نجيب محفوظ، ويعد عملهم جريمة يرفضها الإسلام ويستنكرها كل الاستنكار، ولو أن الشيخ الغزالى عند رأيه القديم الذى سجله فى «لجنة الدفاع عن الإسلام» بوزارة الأوقاف، وهو الرأى الذى أدان فيه الرواية واتهمها بالكفر والإلحاد.. لو كان لا يزال عند رأيه، فإنه ما كان ليذهب لزيارة نجيب محفوظ بعد محاولة اغتياله، وما كان يدين هذه المحاولة، فهل غيّر الشيخ رأيه من أوائل الستينيات حتى سنة ١٩٩٤؟. لا نستطيع الإجابة عن هذا السؤال لأن الرأى الأول والقديم ليس بين أيدينا، والذى بين أيدينا هو الرأى الأخير للشيخ الغزالى وهو رأى فيه اعتراض على الرواية، ولكن ليس فيه اتهام بالكفر والإلحاد.

هذه بعض الفصول فى تاريخ «أولاد حارتنا» وتاريخ تهمة «الكفر» الملصقة بها، وسنوف نلاحظ أن الأمور ظلت هادئة حتى حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل سنة ١٩٨٨، ومعنى الهدوء هنا، أن معارضة الرواية وتوجيه الاتهامات الدينية إليها، لم تكن قد وصلت إلى شئ من الحدة والعنف لمدة تزيد على ربع قرن، ثم انقلبت الآية تماما مع اتساع

تيارات التطرف الدينى فى الثمانينيات، والتى كانت بدايتها اغتيال السادات، ولا شك أن هذه الفترة قد شهدت مدا واسعا جدا للتيارات الدينية المتطرفة هذه. وعندما ننسب هذه التيارات إلى الدين، فنحن نفعل ذلك فقط من باب الوصف الظاهر لهذه التيارات، ولكننا عندما ندقق التفكير فسوف نجد أن هذه التيارات تبتعد عن الفهم الصحيح للدين، وتعتمد على تفكير بالغ الضيق فى المعانى الدينية، بل ويمكننا القول بأن أفكار المتطرفين قائمة على مغالطات شديدة انساق وراءها هؤلاء المتطرفون: أولها أن من حقهم أن يتهموا الناس فى غيابهم، وأن يصدروا عليهم أحكاما من دون أن يسمعوا دفاعهم، ثم أن يقوموا بتنفيذ هذه الأحكام بأيديهم، لأنهم على اقتناع تام بصواب ما يفعلون، وأنهم وحدهم يمثلون الحق والحقيقة، فمن أين جاءت كل هذه الامتيازات التى يعطيها المتطرفون لأنفسهم؟ إن الإسلام لا يعطيهم أى حق من هذه الحقوق، ولا ينظر إلى من يقومون به على أنه أمر له شرعية من أى نوع، فالإسلام يؤكد فى أقدس نصوصه من القرآن والأحاديث الشريفة، أن من يحكم على الناس أو بين الناس، عليه أن يحكم بالعدل .. فأين العدل فى محاكمة الناس؟ وما

الذى يجعل هؤلاء مؤهلين لمحاكمة الناس والحكم عليهم ثم القيام بتنفيذ أحكامهم بهذه الطريقة الدموية التي تعاملوا بها مع نجيب محفوظ، حيث حاولوا قتله فى ١٤ أكتوبر ١٩٩٤ .

إن انتشار التفكير الضيق في أمور الدين، هو مصدر خطير للتعصب والإساءة إلي الناس بغير ما يرضى الله أو يتفق مع شريعته العادلة، وللأسف فقد شهدت ثمانينيات القرن الماضى ومما بعدها اتساعاً لسلطان التفكير الضيق فى الدين، وقد جذب هذا النوع من التفكير جماهير كثيرة استسلمت له، وهى، للحق، جماهير لا تمارس العنف ولا تدعو إليه؛ فالذين يفعلون ذلك هم الأقلية، ولكن هذه الجماهير أصبحت ترضى بما يقال لها من أفكار ما أنزل الله بها من سلطان، وليست من الدين فى شئ، وأصبحت البيئة الثقافية العامة فى مصر والوطن العربى قابلة لهذا النوع من التفكير المحدود الضيق والذى ينطوى على مخاطر كثيرة، وسوف تظل الأمور على ما هى عليه حتى تتحقق للعرب صحوة ثقافية كبرى تزيل هذا الضباب من

عقول الناس، وتضع الدين في إطاره الصحيح ، عن التطرف والتعصب، والصحوة الثقافية لا بد وأن تنطوي على تحرير الفكر الديني من قبضة الذين يسيئون إليه، ويستخدمونه من دون أن يفهموه، والفهم الصحيح، للدين هو وحده الذى يرضى الله ويعود على الحياة والناس بالخير، وهو وحده الذى لا يثير الفتنة والخوف وإسالة الدماء بأحكام باطلة ومحاكمات لا سند لها من الدين بأى صورة من الصور.

«أولاد حارتنا» كشفت في رحلتها منذ ميلادها سنة ١٩٥٩- ، حتى الآن، عن اتساع سطوة الفكر المتطرف، ونموه الكبير من ستينيات القرن الماضى إلى التسعينيات وما بعدها وحتى الآن، ولن تصبح «أولاد حارتنا» مادة أدبية آمنة على نفسها تماما إلا في مرحلة يقل فيها تأثير التطرف والتعصب والتفكير الضيق، ولعل هذه المرحلة تتحقق للعرب بمزيد من الجهد الفكرى الواسع القادر على إشاعة ثقافة العقول المتفتحة والفهم الصحيح للأمور، وعدم الاستسلام للخرافات والشكليات.

وخير ما ننهى به هذه الدراسة هو ما جاء فى محضر النيابة التى استمعت إلى أقوال محفوظ بعد محاولة اغتياله، فقد وجه وكيل النيابة إلى نجيب محفوظ سؤالا قال فيه: ما قولك فيما جاء فى اعترافات المتهمين محمد ناجى «الذى قام بمحاولة الاغتيال»، وزميله محمد المحلاوى «شريكة الأساسى فى التهمة»، بالتحقيقات معهما، من أن رواية «أولاد حارتنا» التى قمت بتأليفها تدور باختصار فى مضمونها حول قصة الخلق والكون، وأنك قمت بتصوير الذات الإلهية فى شخص «الجبلاوى»، وانتهيت فى هذه الرواية إلى أن إخراج الجبلاوى من «التكية» يؤدى إلى إصلاحها، ما يعنى أن الناس يجب أن يعيشوا من غير إله ولا دين؟.

وكانت إجابة نجيب محفوظ عن سؤال وكيل النيابة بقوله: «إن هؤلاء الذين يدعون ذلك لا يقرأون القصص الأدبية بعين أدبية ولا بعين إنسانية تريد أن تعرف الحقيقة وتستطيع أن تدرك معنى صراع الخير والشر فى الحياة، والمهم فى نظر هؤلاء أن يكون الأدب خاضعا حرفيا لتعليمات الدين كما يفهمونه، وهم يغالون فى ذلك لأن

الدين نفسه تعرض لقصة الصراع بين الخير والشر وقصة عصيان إبليس للذات الإلهية، ولو كان هؤلاء يقرأون لعرفوا أن رواياتى كلها تدور حول مفاهيم واضحة، لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون القصد منها التعرض لأى دين من أديان السماء، أو الوقوف من هذا الدين موقف الازدراء .. وما يقوله هؤلاء بأننى كافر أو مرتد هو افتراء فى افتراء، بل إنه فى اعتقادى قول صادر عن أشخاص لا يعرفون دينهم الصحيح، ولو كانوا يعرفون شيئا فإنهم ما كانوا يحكمون على رجل مثلى من رواية واحدة، فقد كتبت عشرات الروايات ولم يقل أحد عنها إن فيها إنكاراً للذات الإلهية، أو أنها تتعرض للتهوين من شأن الدين ، وعلى فرض أننى «كفرت» فى رواية «أولاد حارتنا» ، كما يقولون، فما الذى أدراهم أننى قد عدت إلى صوابى، وأننى بعد أن كتبتها منذ أكثر من ثلاثين سنة، لم أغير موقفى، هذا إذا افترضنا فرضنا «نظريا جدليا» ، أنهم على صواب فيما يقولون ؟..

وكيف يعاقبوننى بمحاولة اغتيالى سنة ١٩٩٤، على رواية كتبتها سنة ١٩٥٩؟ لو كانت عندهم القدرة على الفهم والوصول إلى المعانى الصحيحة فى الأعمال الأدبية، فلماذا لم يأتوا إليّ ليناقشونى فيما كتبت حتى يكون حكمهم ضدى بالقتل حكما يتم بعد سماع أقوالى على الأقل، بدلا من أن يأخذونى غدرا وغيلة؟.. وعلى كل حال أحمد الله، وحسبى الله ونعم الوكيل؟..

ثم يتحدث نجيب محفوظ أمام النيابة عن المعنى الذى قصده من كتابته لرواية «أولاد حارتنا» فيقول: «إن هدف الرواية من وجهة نظرى ككاتب لها، هى التبشير بضرورة التحام العلم بالدين، والرواية تقول بصريح العبارة إن الدين أنقذ البشرية من المظالم، وإن العلم قادر أيضا على أن يرتقى بها وينهض بأحوالها بشرط ألا يحيد عن مبادئ الدين. لقد كتبت هذه الرواية سنة ١٩٥٩، وتم نشرها فى «الأهرام» ثم لم تظهر فى كتاب داخل مصر، فكيف تتم معاقبتي عليها بعد هذا الزمان الطويل؟.. ولماذا لا يكون هذا العقاب

إلا بعد حصولى على جائزة نوبل؟.. أليس هذا دليلا إضافيا واضحا على أن القصد من محاولة اغتيالى ليس هو أخذى بما ورد فى الرواية، وإنما كانت الرواية وسيلة أو مبررا للقتلى لأسباب أخرى».

بعد ذلك وجه وكيل النيابة سؤالا إلى نجيب محفوظ، قال فيه:

هل لديك أقوال أخرى؟

أجاب نجيب محفوظ:لا

وقد وقعت محاولة اغتيال نجيب محفوظ - كما أشرنا من قبل- فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٩٤، وقال محمد ناجى الذى قام بطعن نجيب محفوظ فى رقبته بقصد قتله فى حديث له، جريدة «الأهرام» بتاريخ ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٩٤: «لم نقرأ الرواية، ولكن تكليفا لنا ، صدر إلينا بقتل مؤلفها نجيب محفوظ، وأنا لست نادما على ما فعلت، ولو قدر لى الخروج فسوف أعيد المحاولة».

فى ١١ يناير سنة ١٩٩٥، أصدرت المحكمة العسكرية

العليا أحكامها في قضية اغتيال نجيب محفوظ، وقد حكمت المحكمة بإعدام محمد ناجي محمد مصطفى الذى قام بتنفيذ الجريمة وإعدام شريكه الأساسى محمد خضير أبو الفرج المحلاوى، كما حكمت بالسجن لفترات متفاوتة على باقى المتهمين.

كنت أتمنى أن يتأنى

السيد صادق المهدى زعيم عربى كبير، وهو رئيس حزب الأمة السودانى، وكان رئيسا لوزراء السودان فى ثمانينيات القرن الماضى، والذى لا شك فيه أن الصادق المهدى ليس مجرد زعيم معروف على المستوى العربى كله، وذلك بفضل نشاطه وحيويته ومساهمته - ولو بالفكر - فى معالجة المشكلات العربية المهمة والأساسية.

وفى السنوات الأخيرة أصبح الصادق المهدى مهتما بالكتابة المنتظمة فى صحيفة «الشرق الأوسط» السعودية التى تصدر فى لندن، ومعظم ما يكتبه هذا الزعيم الكبير هو مقالات يتناول فيها الشئون السياسية، وهذا أمر منطقى، فالصادق المهدى رجل سياسة أولا وقبل كل شئ، وما يكتبه فى هذا المجال يستحق التأمل والتفكير والانتفاع به، لأنه صادر عن رجل له خبرة وتجربة، ويده كانت ومازالت فى النار وليست فى الماء البارد.

وإذا كـان من حق الصـادق المهدى أن يكتب ويتكلم فى السياسة كما يشاء، فإن ما قد يبدو غريبا بعض الشئ أن يتكلم فى الأدب، فليس الأدب هو مجال الصادق المهدى بأى حال من الأحوال وإن كانت سمعة هذا الزعيم الكبير هى أنه رجل واسع الثقافة، ومن هنا فإن حديثه فى الأدب يمكن أن يلقى الترحيب لو أن هذا الزعيم السياسى استطاع أن يراجع ما يقوله أو يكتبه قبل أن يعلنه على الناس، وبذلك يكون حديثه الأدبى مناسبا لقيمته ولائقا بمكانته، أما أن يكتب الصادق المهدى كلاما فيه تسرع يصل إلى حد الارتجال وعدم الإحاطة الصحيحة والواجبة بالموضوع الذى يتحدث فيه، فهذا ما كنا نُنزه هذه الزعيم الكبير عن الوقوع فيه، ولكنه للأسف قد وقع فى هذا الخطأ الذى أحب أن أعرض له اليوم، مع تأكيدى أننى – على غير معرفة شخصية– أحمل للزعيم السودانى الكبير كل الاحترام والتقدير، واعتراضى على بعض ما كتبه الصادق المهدى فى إحدى القضايا الأدبية لا يقلل أبدا من احترامى له واعترافى بفضله وقدره.

فى عدد جريدة «الشرق الأوسط» الصادر فى العاشر من

شهر سبتمبر الماضى، كتب الصادق المهدى مقالا عنوانه «فى وداع أمير الرواية العربية»، والعنوان يشير إلى موضوع المقال، وهو الحديث عن نجيب محفوظ، وفى مقدمة المقال كتب الصادق المهدى كلاما طيبا عن نجيب محفوظ يقول فيه: «إن نجيب محفوظ، قد أثرى أدب الرواية والقصة العربية المعاصر بعشرات الروايات والقصص القصيرة، متفوقا على أقرانه، ممتعا ومبدعا، بحيث استحق أن يُنادى بأمير الرواية العربية.».

وهذا الكلام يوحى بتقدير كاتبه لنجيب محفوظ ومعرفته بقيمته الحقيقية ومكانته الرفيعة، لكننا فى نهاية هذا المقال نجد مفاجأة غير سارة على الإطلاق، حيث يقول الصادق المهدى: «قرأت رواية : «أولاد حارتنا» ولولا اسم مؤلفها لما صبرت على سذاجة خطتها الروائية وتهافت مقولتها الفلسفية، فالرواية ببساطة تستصحب قصص الأنبياء، وتتبنى رؤية الفيلسوف الفرنسى «أوجست كونت» الذى قال إن الإنسان فى طفولته الحضارية يؤمن بالسحر، ثم يتقدم فيؤمن بالدين، وأخيرا يتخلى عن الدين لصالح العلم، ورواية «أولاد حارتنا» تقتبس قصص الأنبياء ممثلة لمرحلة الاعتقاد

الدينى، وتنتهى إلى مرحلة النضج الإنسانى فى المرحلة العلمية، تماما مثل مقولة الفيلسوف الفرنسى ، ورواية «أولاد حارتنا» على هذا الأساس تحمل تصويرا غير علمى للحقيقة».

تلك هى خلاصة كلام الصادق المهدى- بألفاظه عن رواية أولاد حارتنا، وهو للأسف كلام فيه كثير من التسرع، وفيه عدم تقدير لحساسية الحديث عن هذه الرواية التى أثارت مشكلات عديدة كادت تؤدى إلى قتل نجيب محفوظ، وفيه أيضا بعض التناقض الظاهر.

وهذه ملاحظاتى على كلام الصادق المهدى عن أولاد حارتنا، أكتبها بإيجاز شديد.

أولا:- يرى الصادق المهدى أن الرواية ساذجة ومتهافتة، وهذا ذوقه الأدبى الخاص به، وهو حر فيه، وإن كان فى هذا الكلام تناقض مع وصف نجيب محفوظ بأنه أمير الرواية العربية، فكيف يسقط الأمير فى كتابة رواية ضخمة تقترب من خمسمائة صفحة ثم تكون رواية ساذجة ومتهافتة؟ على أن التناقض الأكبر فى هذا الكلام هو أن تكون بهذه السذاجة والتهافت ثم تعتمد على فكرة لفيلسوف من أكبر فلاسفة

العالم هو «أوجست كونت ١٧٩٨-١٨٥٧». إن سذاجة الرواية وتهافتها يعنيان أن الرواية لا قيمة لها، وإنها تافهة من ناحية الفكر الفني والفن معا، فكيف تقوم رواية بهذا المستوى الهابط على أساس فلسفي عميق؟

ثانيا: ينضم الصادق المهدى بكلامه السابق إلى الذين يحكمون على نجيب محفوظ وروايته بالكفر، والعدوان على الدين، وما دام هذا هو رأيه فكيف يصف نجيب محفوظ بأنه أمير للرواية العربية؟ إن الكافر لا يستحق الإمارة في الأدب ولا فى الحياة.

ثالثا: يتجاهل الصادق المهدى تفسيرات قال بها عدد من كبار المفكرين والعلماء المسلمين مثل الدكتور أحمد كمال أبو المجد والدكتور محمد سليم العوا، وهذه التفسيرات القائمة على المنطق والحجة والبرهان والدليل تنفى عن الرواية إساءتها للدين، لكن الصادق المهدى يترك هذه التفسيرات المستنيرة الرائعة ويتبنى تفسير رجل متطرف مثل الشيخ عمر عبد الرحمن الذى أفتى يوما بقتل نجيب محفوظ.

إن رواية «أولاد حارتنا»، فى جوهرها هى دعوة إلى الربط

بين العلم وبين القيم الروحية، لأن العلم وحده قد يتم استخدامه في الشر، والقيم الروحية وحدها لا تكفي لحل مشكلات الإنسانية الكثيرة والصعبة..

وقد كنت أتمنى أن يتأنى زعيم سياسي مستنير مثقف مثل الصادق المهدي قبل أن يتبنى تفسيرا خاطئا ومتسرعاً وشديد الخطورة، أطلقه المتطرفون على «أولاد حارتنا»، وقد قال هؤلاء المتطرفون إن الجبلاوي في أولاد حارتنا هو «الله» رغم أن الجبلاوي في الرواية متزوج وله أولاد، وفي القرآن الكريم:

«قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد. صدق الله العظيم».

وهذا وحده يهدم التفسير المتطرف وغير المنصف لأولاد حارتنا، فلماذا اختار الصادق المهدي أن ينضم في هذه القضية الحساسة إلى فريق البعيدين عن الصدق، والذين يحكمون على الأمور بالشبهات، ويستبيحون دماء الناس بغير الحق؟ ومن هو الجمهور الذي أراد الصادق المهدي أن يخاطبه ويرضيه؟

الصادق المهدى و«أولاد حارتنا»
مرة أخرى

من بين الاتهامات التى وردت على شكل تلميحات فى مقال الزعيم السودانى الصادق المهدى بجريدة «الشرق الأوسط» فى العاشر من سبتمبر ٢٠٠٦، ما أشار إليه الأستاذ الكبير من أن جائزة نوبل قد ذهبت إلى نجيب بفضل روايته «أولاد حارتنا»، وهى كما يقول الصادق المهدى عنها إنها رواية «ساذجة متهافتة وقائمة على فكرة قصص الأنبياء»، عليهم السلام.

ماذا يعنى هذا الكلام؟

إنه يعنى بكل بساطة الاتفاق مع ما قاله المتطرفون عن رواية «أولاد حارتنا»، من أنها هى التى جاءت بجائزة نوبل إلى نجيب محفوظ ؛ لأن الرواية كانت ضد الإسلام، وجائزة نوبل مؤسسة تحارب الإسلام حربا شديدة، وإن كانت تحاول أن تخفى هذه الحرب وراء ستار من الأدب، والثقافة، والسيد

الصـادق المهـدى - للحق - لم يقل هـذا الكلام الذى يقـوله المتطرفون بصورة واضحة ومباشرة، ولكنه قاله بصورة رقيقة شفافة ليس فيها حدة، ولا عنف ولا حكم على نجيب محفوظ- كما فعل المتطرفون- بأنه قد باع دينه من أجل الجائزة، وهى وإن كانت جائزة عالمية ومعروفة، فإنها لا يصح أبدا أن تكون ثمنا لكى يبيع إنسان دينه من أجلها، بل إنها لجريمة كبرى أن يكون ثمن الإنكار «للإسـلام» هو جـائزة نوبل، والذين يوجهون هذه الاتهامات ضد نجيب محفوظ بصورة «وحشية وعشوائية»، كما يفعل المتطرفون، أو بصورة متحضرة رقيقة، كما فعل السيد الصادق المهدى، يلتقون فى نقطة واحدة، هى القول إن رواية «أولاد حارتنا» هى رواية «لا دينية» أو بعبارة أخرى إنها رواية تعادى الدين، وتعلن نهاية دوره فى حياة الإنسان.

هل يمكننا أن نقبل هذا التفسير لأولاد حارتنا ، وما يتبعه من إدانة لنجيب محفوظ واتهامه فى دينه، بل اتهامه بأخطر وأسوأ ما يمكن أن يتعرض له أى إنسان من الاتهامات، وهو أنه باع دينه فى مقابل جائزة قيمتها نحو مليون دولار؟.

في الإجابة على هذا السؤال ، هناك أدلة كثيرة تؤكد أن نجيب محفوظ برئ من هذه التهمة تماما، وأن مصدر المشكلة هو أن يتصدى الذين ليس لهم علاقة بالأدب أو بعلوم الأدب لتفسير عمل من الأعمال الأدبية ، فهؤلاء ليس لهم علاقة بالأدب من حيث قراءته ، ودراسته ، وفهمه وتذوقه ، لا يحق لهم أن يقوموا بتفسير الأعمال الأدبية ، لأنهم يكونون في ذلك مثل من لا يعرف شيئا من علوم الدين، ثم يتصدى للحديث في الدين والفتوى فيه ، والتفسير الأدبي لعمل من الأعمال، هو نوع من الفتوى، ولكنه فتوى أدبية نطلق عليها اسم النقد الأدبي، وله أصول ورجال متخصصون ، ولا يجوز لمن لا يعرفون شيئا من علوم الأدب، وليس معروفا عنهم أنهم من الدارسين المتخصصين، أو القراء المتذوقين أن يفتوا في الأدب ، وأن يقولوا فيه أقوالا خطيرة لابد أن يحاسبهم الله عليها قبل أن يحاسبهم الناس، مثل القول الخطير إن نجيب محفوظ قد أعلن كفره في «أولاد حارتنا» وأنه باع إسلامه بنحو مليون دولار تسلمتها ابنتاه «فاطمة» و«أم كلثوم» من يد ملك السويد سنة ١٩٨٨م .

لو صح القول إن أولاد حارتنا هى ضد الله سبحانه وتعالى، وضد أنبيائه عليهم السلام، لكان معنى ذلك أن «أولاد حارتنا»، هى ضد «الأديان» جميعا، أى ضد اليهودية، والمسيحية، والإسلام. وإن الرواية بذلك ليست ضد الإسلام وحده، فهل يمكن أن تذهب جائزة نوبل إلى أديب يهاجم المسيحية؟ ، وهل يمكن أن تذهب الجائزة بسعى من اليهود، وضغط وتحريض منهم إلى رجل يهاجم اليهودية؟ الإجابة عن هذه الأسئلة كلها هى بالعودة إلى الحقيقة الموضوعية التى يمكن أن يحدثنا عنها أى متخصص قادر على الحديث فى الأدب وتفسيره، وتذوقه، فرواية «أولاد حارتنا» هى رواية عامة تتحدث عن كفاح الإنسان منذ ظهوره على الأرض من أجل تحقيق العدالة، ومن أجل تحقيق التوازن بين الخير والشر لمصلحة الخير، ومن أجل تغليب الضمير، والمبادئ الإنسانية، على القوة القاهرة والسلاح الذى لا يعبأ بشئ غير فرض إرادة من يحملونه على الناس بغير الحق، فكانت القوة دائما هى الحق، ولا حق سوى القوة. وفى النهاية فإن رواية «أولاد حارتنا» هى دعوة إلى العلم، فالعلم هو صانع النور والتقدم فى الحياة، ولكنه قادر أيضا على صناعة الشر

بصورة خطيرة، ولذلك فلابد أن يرتبط العلم بالضمير أو بالإيمان حتى يبقى قوة قادرة على خدمة الإنسان والدفاع عنه، ولقد سمعت نجيب محفوظ – فى أحد حواراته معى – يقول وهو صادق فيما يقول، ولم يكن مضطرا لأى كلمة من كلماته:

«إن فى أعماق قلبى وروحى إيماناً لم تنتزعه منى دراستى للفلسفة ولا تفكيرى المتصل فى مشاكل الإنسان والمجتمع».

وإيمان نجيب محفوظ ينعكس فى أعمال كثيرة، حتى لقد أغرى ذلك عددا من الباحثين بدراسة هذا الجانب فى أدبه، وكان فى مقدماتهم الناقد الجامعى الكبير الدكتور «محمد حسن عبد الله»، الذى كتب دراسة قيمة جدا عن الجانب الروحى والدينى فى أدب نجيب محفوظ.

من هنا يمكننا القول – بدون أى مبالغة أو خروج على الموضوعية – إن جائزة نوبل لم تذهب إلى نجيب محفوظ بسبب الإلحاد وكفره، وخروجه على الدين، بل ذهبت إليه

بسبب عبقريته الفنية التى عرفها العرب عنه، ثم عرفها العالم بعد ذلك عن طريق ترجمة أعماله إلى اللغات المختلفة قبل أن ينال جائزة نوبل.

على أن تهمة الإلحاد أو الكفر أو الخروج على الدين، ليست التهمة الوحيدة التى تربط جائزة نوبل بأسباب ملفقة خارج عبقرية نجيب محفوظ وإخلاصه النادر على مدى عمره الطويل، لأدبه وقلمه وللمبادئ الإنسانية العالية فى العدالة، والحرية والتقدم.

هناك تهمة أخرى تقول: إن نجيب محفوظ ما كان لينال جائزة نوبل إلا بسبب تأييده للتطبيع والسلام مع إسرائيل، وهذه التهمة أيضا هى محاولة للتنزيل من قيمة نجيب محفوظ، وكأنه بحصوله على الجائزة العالمية لم يكن سوى بوق للدعاية الصهيونية، وكان وسيلة من وسائل تثبيت أقدام إسرائيل فى الأرض الفلسطينية. والذين يدرسون تاريخ نجيب محفوظ دراسة موضوعية، لا تتوقف عند الشكليات، لن يجدوا فى هذا التاريخ، ما يمكن أن يؤخذ على نجيب

محفوظ، فلا هو سافر إلى إسرائيل، كما فعل الدكتور حسين فوزى مثلا، ولا هو تقاضى مليما عن كتبه التى ترجمها اليهود إلى اللغة العبرية، ولا هو دعا إلى التطبيع مع إسرائيل، أو أسهم فى الدعوة إلى ذلك، وليس فى أدب نجيب محفوظ كلمة واحدة عن التطبيع، أو عن التسليم لإسرائيل بأى حق في احتلال شبر واحد من الأرض العربية، ليس فى كتابته شئ من ذلك على الإطلاق، ولكن نجيب محفوظ كان له نظرة واقعية قد لا يرضى البعض عنها، بل لقد رضى عنها الكثيرون، وهى تتلخص فيما سمعته منه، فى أحد حواراتى معه، حيث قال:

«من خلال تأملى لهزيمة ١٩٦٧، توصلت إلى عدة اقتناعات هى:

١ - من يريد أن يذبح إسرائيل فعليه أن يذبح أولا أمريكا، والدول الغربية الأخرى التى تساند إسرائيل.

٢ - أن تلك الدول كلما شعرت بقوة مصر تتزايد، وبأن هذه القوة تمثل خطرا على أمن إسرائيل، فإنها تسارع بالتدخل، سواء بشكل مباشر أو من وراء ستار، وقد حدث ذلك فى حروب ٤٨، ٥٦، ١٩٦٧ .

٣ – أن الحرب فى كل الدنيا، ونتيجتها إما مهزوم أو منتصر. وأن الهزيمة ليست نهاية الدنيا، وعلى المهزوم أن يعيد خلق نفسه من جديد، أما أن يدخل فى خندق اللاسلم واللاحرب فذلك وضع غير طبيعى، ولم يحدث مثله فى التاريخ.

٤ – أن الهزيمة لم تكن عسكرية بقدر ما كانت هزيمة من داخلنا أيضا».

تلك هى بعض أفكار نجيب محفوظ الأساسية، وهى قابلة للمناقشة والاختلاف معها، ولكن القول إن نجيب محفوظ قد نال جائزة نوبل لتأييده التطبيع مع إسرائيل، هو قول باطل من الألف إلى الياء، مثله تماما مثل القول إنه – والعياذ بالله – قد باع دينه بنحو مليون دولار.. وأنا لا أبرئ جائزة نوبل من الشبهات، ولكننى أبرئ نجيب محفوظ.. وأعتقد أنه أكبر من كل هذه الشبهات.

الفهرس



المرأة والسلطة



للكاتبة

د. عفاف عبد المعطى

يصدر: ٥ مارس ٢٠٠٨م

رئيس مجلس ال[illegible]

عبد القادر [illegible]

رئيس التحرير

مجدى الدقاق

رقم الإيداع

٢٠٠٨/٣٩٠٣

I.S.B.N

977 - 07 - 1286 - 8

هذا الكتاب

يدور حول رواية «أولاد حارتنا» لأمير الرواية العربية «نجيب محفوظ» ، والتي نُشرت - لأول مرة - على صفحات الأهرام سنة ١٩٥٩ ، كانت أخطر رواية عربية في القرن العشرين، ليسّ لقيمتها الفنية فقط بل لما قامت عليه من أفكار، وما قدمته من شخصيات، فقد شاء المتطرفون ممن يحاولون التسلط على العقل العربي ويعملون على تقييده بقيود شديدة حتى لا يتحرر وينطلق في الأفاق . كما انطلقت عقول الآخرين فتقدموا فى حياتهم وعالجوا كثيراً من مشاكلهم وبقينا نحن فى آخر المسيرة.. حاول هؤلاء أن يستخرجوا من رواية «أولاد حارتنا» ما يثبت أنها رواية كافرة وأن مؤلفها كافر، وذلك عن طريق تفسير ضيق وخاطىء للدين، وقد بدأ الاعتراض على الرواية فى ستينيات القرن العشرين، وكان اعتراضاً هادئاً بعيداً عن الصخب، وبعيداً كذلك عن استخدام العنف، ولكن الحملة ازدادت شراسة بالتدريج، بعد أن اتسعت مساحة التطرف في بلادنا، وازداد عدد الذين يستخدمون الدين في غير موضعه، وقد وصل الأمر إلى محاولة اغتيال نجيب محفوظ سنة ١٩٩٤ على يد شاب متطرف جاهل.

قصة «أولاد حارتنا» وما أحدثته من ردود الفعل المختلفة، ومعظمها عنيف، هي موضوع هذا الكتاب الذى يكشف أن المأساة كلها تكمن فى التفسير الخاطىء للدين، وإقحام الدين فى أمور لا علاقة له بها، وهذا بلاء يهدد مجتمعنا بالعزلة القاتلة عن العالم الذى نعيش فيه، وهو بلاء ينذر بتقييد العقل حتى يتحول إلى مصدر للظلام، وليس مصدراً للنور. وعلينا أن نقف ضد هذا البلاء بكل ما نملك من قوة وعزيمة.





طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨ ، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ ش كامل صدقى الفجالة - ٥ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ . فاكس : ٢٥٩٦٦٥٠ - ٦٨٢٧٠٠٢ / ٢٠٢ ج.م.ع ٤ش بدوى محرم بك - الإسكندرية